هيثم الوراني

ما لا يمكن إصلاحه

قصص

t.me/qurssan

t.me/qurssan

هيثم الورداني

ما لا يمكن إصلاحه

قصص

t.me/qurssan

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © هيثم الورداني ٢٠٢٠
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

الورداني، هيثم.
ما لا يمكن إصلاحه: قصص / هيثم الورداني - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٠.
٢٤٨ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789776743212
١- القصص العربية القصيرة
أ- العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٦ / ٢٠٢٠

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد
لوحة الغلاف: «سلطان قانون الوجود» للفنان عمر مصطفى (٢٠١٩، أكريليك على توال)،
مستخدمة بإذن كريم من موقع «مدى مصر»، ومعدلة بموافقة الفنان.

t.me/qurssan

المحتويات

سلطان قانون الوجود ٧

الخطوة المعلقة ٣١

أمير الظلام ٥٥

أمل أعمى ٧٣

أديم الأرض ١٠٧

غداء ١٣٥

مياه جوفية ١٥٩

شبابيك جديدة ٢١٩

t.me/qurssan

t.me/qurssan

سلطان قانون الوجود

اقتربت السيارة من البناية الأخيرة في البلوك، ثم هدأت سرعتها تدريجيًّا حتى توقفت بالقرب من المدخل. نظر أبو عبير إلى أعلى في اتجاه المنور ثم قال:

ـ شباك المطبخ مقفول.

ركن أشرف السيارة بجوار البناية في الظل، ثم أطفأ المحرك وأشعل سيجارة، وبقي جامدًا يتطلع من زجاج السيارة أمامه. كان الوقت عصرًا ولم تنكسر الحرارة بعد. تمطت قطة متسخة خارجة من تحت إحدى السيارات وعبرت الطريق، ومن بلكونة الدور الثاني امتدت يد امرأة إلى حبل السبَت المُعلق، وأَرْخته فتدرج هابطًا حتى وصل إلى جوار مدخل البناية، ووقفت تتطلع مستندة إلى سور البلكونة. رمى أشرف بعقب سيجارته من النافذة وقال:

t.me/qurssan

ـ يكونش خزِّنها عند أخته اللي في السويس؟

فأجاب أبو عبير من دون أن يلتفت:

ـ ما يلحقش يسافرلها يا أشرف.

فزفر أشرف وسكت.

من بين البنايات المتراصة لاحت رمال صحراء الأهرام القريبة. قال أشرف:

ـ أنا بقالي كتير ما شفتش الوله أخوه، يكونش...

قاطعه أبو عبير قائلًا:

ـ يا أشرف إنت عارف إن وليد طه مش تلميذ، ده أحسن واحد يخزِّن، وعمره ما هيخزِّن عند أخته ولا أخوه.

فانفعل أشرف وصاح:

ـ دي فلوسي يا أبو عبير، فاهم يعني إيه فلوسي؟

وأخذ يضرب بقبضته على مقود السيارة. فردَّ أبو عبير:

ـ عارف يا اخويا يا أشرف، عارف. آديك شايف ما سبناش حتة غير لما دورنا فيها.

ثم صمتا وأعينهما مثبتة على زجاج السيارة الأمامي. عاد الطفل وهو يحمل كيسًا بلاستيكيًّا أسود، ووضعه في

t.me/qurssan

السبَت، ثم أخذ يصيح باتجاه البلكونة الخالية، وعندما لم يَرُد عليه أحد، أخذ يتعلق في السبَت محاولًا الأرجحة يمينًا ويسارًا. قال أبو عبير:

ـ وليد معموله عمل يا أشرف.

فشخر أشرف شخرة جافة من دون أن يفتح فمه. عادت المرأة إلى البلكونة وصرخت في الطفل، فتوقف عن الأرجحة، وأخذت ترفع السبَت. وأخيرًا قال أبو عبير بعد أن طال الانتظار:

ـ روَّق دمك يا أشرف، واطلع نعمل لفَّة لحد ما السُّنِّي يرجع.

ابتعدت السيارة عن مساكن كفر الجبل، وسارت الهوينى على طريق ترعة المنصورية، وما إن تجاوزت معسكر الجيش حتى تناهت إلى أسماع الراكبين أصوات خبطات قوية قادمة من شنطة السيارة الخلفية. كانت الخبطات واضحة رغم صوت محرك السيارة، فأصغى أبو عبير قليلًا إليها ثم أهملها ناظرًا عبر الشباك الجانبي، واستمر أشرف في قيادة السيارة حتى تجاوز منطقة الإنشاءات المجاورة، بعدها انعطف في طريق ترابي غير ممهد، تحفُّ

t.me/qurssan

به الأشجار والحقول من الجانبين. سارت السيارة تلفها موجات من الغبار الكثيف، يقطع طريقها من حين لآخر بعض المزارعين الذاهبين إلى حقولهم، وبمرور الوقت اختفى العابرون واختفى من ورائهم الشريط الزراعي الرفيع، حتى وصلت السيارة إلى مقلب قمامة مهجور، فأطفأ أشرف المحرك وترجَّل الرجلان من السيارة، ووقفا يتطلعان حولهما. لم يبقَ من المدينة بأَسرها على مدى البصر سوى صف بعيد من البيوت الصغيرة المبنية بالطوب الأحمر الكابي، مُحاط بلون أخضر باهت. فتح أبو عبير شنطة السيارة، وبحركة واحدة أمسك بالحبل وحمل وليد طه المُلقى في قاع الشنطة من عراقيبه، ووضعه على الأرض، ثم حلَّ وثاق أقدامه، وعلى الفور انتصب وليد طه على قوائمه الأربعة، وأخذ يُصدر صفيرًا من منخاريه وهو يحاول الجري يمينًا ويسارًا، وأبو عبير يشده بقوة من الحبل المربوط حول عنقه، حتى هدأ. استند الرجلان إلى الرفرف الخلفي للسيارة وأخذا يدخنان في صمت، فيما حاول وليد طه الاقتراب من علبة صدئة مُلقاة، فأرخى له أبو عبير الحبل حتى وصل إليها. أدخل خَطْمه داخل العلبة، ثم نفر منها وأزاحها جانبًا. قطع أشرف الصمت قائلًا:

t.me/qurssan

ـ أنا اللي أستاهل علشان روَّحت يوميها وسبته يخزِّن لوحده.

فأجابه أبو عبير:

ـ ما تهريش وتُنكت في نفسك يا أشرف. أكيد خزِّن في حتة أمان.

ثم توقف الرجلان عن الكلام وأخذا يتابعان وليد طه وهو يرعى في القمامة. كان يعرج عرجة واضحة، وينبش بقدميه هنا وهناك. وأخيرًا أقعى على الأرض الترابية على حافة المقلب، وخلفه انعكست شمس الأصيل الذهبية على كومة القمامة الهائلة.

رفع أبو عبير رأسه ونظر من السيارة في اتجاه المنور. هذه المرة كان شباك المطبخ مفتوحًا في الطابق الثالث. انتظر الرجلان في السيارة بجوار مدخل البناية حتى هدأت الحركة، ثم نزلا. فتح أبو عبير شنطة السيارة وحمل وليد طه بسرعة على كتفه، ورمى أشرف فروة خروف فوقه. صعد الرجلان بخفة حتى الطابق الثالث وطرقا الباب. مرت لحظات من دون أن يحدث شيء، فطرق أشرف بحزم مرة أخرى وهو يقول بصوت خفيض:

t.me/qurssan

ـ افتح يا سُنِّي.

من العين السحرية نظر السُّنِّي طويلًا، ثم حسم أمره وفتح الباب، فدخلا بسرعة وهما يلهثان. وما إن دلفا حتى أطلق أبو عبير سيقان وليد طه، مبقيًا الحبل في يده. ظلَّ السُّنِّي متسمرًا في مكانه يتطلع إلى الأخير وقد انتصب في الصالة، يحاول عبثًا التملص من حبل أبو عبير، وينظر إلى السُّنِّي بعينيه القاتمتين مُصدرًا صفيرًا رفيعًا. كان وليد طه أشبه بحمار وحشي في حجم عنزة، كل أعضائه كانت أعضاء حمار وحشي لكنها أصغر بكثير من الحجم الطبيعي. قوائمه قوية لكنها قصيرة، رقبته عريضة لكنها مدكوكة. الخطوط السوداء التي تتماوج على جلده كانت رفيعة. قال السُّنِّي مدهوشًا:

ـ إيه ده؟

فأجابه أبو عبير:

ـ ده وليد طه.

تفرس السُّنِّي الرجُلين، ثم ذهب ليجلس على الكنبة من دون أن ينطق بشيء. كانت الزيارة مفاجئة له، فصِلته بالاثنين انقطعت منذ مدة طويلة، آخر مرة قابلهما فيها كانت عند أشرف، يومها غضب السُّنِّي منه بعد أن جعل

t.me/qurssan

منه أُضحوكة الجلسة، إذ لم يتوقف عن السخرية من نسيانه المتكرر لأماكن البيوت بسبب انسطاله الدائم، وكاد يتعارك معه لولا أن هدَّأ وليد طه من غضبه. ثم أشعل السُّنِّي سيجارة، وأخذ يتطلع من بعيد لوليد. كانت أمارات الإنهاك واضحة عليه، فقد كان ضامرًا، ووجهه ممصوص ومترب، كما أنه فقدَ شوارب الجانب الأيمن من خطمه. وأخيرًا قال السُّنِّي:

ـ إيه اللي حصل؟

فأجاب أشرف:

ـ مفيش، أنا كنت في الأوضة عنده، وبعدين قالي اطلع يا أشرف شوية البلكونة. أنا ما خدتش في بالي، وطلعت أشرب سيجارة، رجعت لقيته زي ما انت شايف.

فبحلق السُّنِّي فيه وردد وراءه:

ـ طلعت تشرب سيجارة رجعت لقيته زي ما انا شايف!

قال أشرف بلامبالاة:

ـ آه.

تدَخل أبو عبير قائلًا:

ـ وليد طه معموله عمل يا سُنِّي.

t.me/qurssan

فنظر إليه السُّنِّي شزرًا وقال:

ـ نقَّطنا بسكاتك يا أبو عبير.

وفجأة أفلت وليد طه من الحبل بحركة مباغتة، وانطلق رغم عرجته في اتجاه الشباك الوحيد في الصالة، ونطح الزجاج بكل قوته محاولًا عبثًا القفز منه، فهشمه. وما إن أفاق أبو عبير من الصدمة حتى شدَّ الحبل بسرعة فانثنت رقبة وليد طه بقوة. ساد التوتر جو الصالة، ووقف الرجال الثلاثة واجمين. وأخيرًا سأل السُّنِّي:

ـ إنت زعلته في حاجة لما كنت معاه يا أشرف؟

فأجاب أشرف بالنفي، ثم أكمل قائلًا:

ـ لما فتحت باب البلكونة علشان أخش الأوضة، لقيت وليد جاي ناحيتي، ربك والحق أنا الأول اتخضيت، وبعدين فهمت علطول إن ده وليد، ولما قرب مني لقيته قعد يرفَّس وعايز يخش البلكونة، أنا خفت ينط منها فمسكته من رقبته بالعافية، وربطته بحبل، ونزلت أجيب أبو عبير.

غالَب السُّنِّي دهشته وقال:

ـ حمار مخطط وعايز يطير!

t.me/qurssan

فصرخ أشرف:

ـ يا سُنِّي مش ده المهم يا سُنِّي، المهم البضاعة يا سُنِّي. وليد طه خزِّن البضاعة لوحده. أنا كنت تعبان ليلتها وسبته يخزِّن وروَّحت. إحنا بقالنا أسبوع نكشنا فيه كل حتة كان بيروحها ع البضاعة، ومش لاقيين حاجة. دبَّرني يا سُنِّي!

انعقد لسان وليد طه منذ ذلك اليوم، ولم يعد يصدر سوى صفير رفيع عبر فتحتَي منخاره عندما يتنفس. كلما وجَّه له أبو عبير أو أشرف سؤالًا، نظر وليد طه إلى محدثه وأخرج صفيرًا من منخاره. صمتُ وليد طه المطبق أثار حيرة الرجلين، واعتبرا أنه يخفي سرًّا عمدًا، فقررا أن ينقلاه إلى سطوح أبو عبير البعيد عن الأعين لاستجوابه بدقة. وما إن وطئ وليد طه أرض السطوح حتى أُصيب بهياج عنيف، وحاول فورًا القفز من سور السطوح، لذلك لم تكن جلسات الاستجواب تتم سوى بعد أن يربطاه ربطًا محكمًا حتى لا يقفز. وكانت أسئلة أشرف وأبو عبير لا تخرج عن الاستفسار عن مكان تخزين البضاعة، لكن وليد طه لم يُحِر أي إجابة. وفي إحدى سورات الغضب أمسك أشرف بفك وليد طه الأسفل وأخذ يفتحه عنوة للحصول

t.me/qurssan

على جملة مفيدة، ولما باء بالفشل انهال عليه بقدمه، وأخذ يرفسه في بطنه وساقه لكي ينطق، حتى أعطب ساقه الخلفية. بعد يومين من محاولات الاستجواب المحمومة، ظهر واضحًا لأشرف وأبو عبير أن وليد طه لم يعد يُصدر أي صوت سوى صفير تنفسه العالي، فخرج أبو عبير باستنتاجين: الأول هو أن وليد طه لا يخفي سرًّا ولكنه فقدَ القدرة على الكلام، فهو يفهم ما يقال له، بدليل أنه ينظر إلى محدثه، لكنه لم يعد يستطيع أن يقول أي شيء. أما الاستنتاج الثاني فكان أن وليد طه ربما كان يحاول أن يخبرهما بمكان البضاعة من خلال محاولات القفز المتكررة، وأنه ربما كان يريد أن يقودهما إلى مكان ما. وبناءً عليه اقترح أن يأخذا وليد طه في جولات إلى المناطق التي يشُكان أنه خزَّن فيها، ويرخيا له اللجام قليلًا لعله يقودهما إلى مكان البضاعة. وأضاف:

ـ هوَّ هيكون خزِّن فين يعني؟ يا إما في الطوابق يا إما في «العشريني».

وزن أشرف الاستنتاجين مليًّا، ورأى أن اقتراح أبو عبير هو اقتراح وجيه.

في البداية حملا وليد طه إلى «التلات طوابق»، بعد أن

t.me/qurssan

ألبساه فروة خروف وربطاها فوق ظهره حتى لا يلاحظه المارة. فكان أبو عبير يركز عينيه في عينَي وليد طه القاتمتين وهم لا يزالون في السيارة، ويسأله بصوت واضح وبطيء:

ـ البضاعة فيييين يا وليييييد؟

ثم يسير الرجلان به والحبل في يد أبو عبير. مشيا به بالقرب من بقالة حمادة حيث خزَّن المرة الماضية، ثم سارا به من حارة إلى حارة في المنطقة المجاورة، أملًا أن يقودهما إلى مكان البضاعة، لكن وليد طه كان يسير هادئًا وسط الرجلين. حتى عندما يجلسان إلى مقهى للاستراحة وشُرب الشاي، كان يتمدد على الأرض أمامهما في سلام. من حين لآخر يشد جسمه كأنه مقبل على العَدْو، فينتبه أبو عبير الممسك باللجام، لكنه في النهاية يُقعي على الأرض مرة أخرى. بعدها حملاه إلى شارع العشرين، منطقته القديمة، لعل وعسى، لكن المشي في الشوارع لم يؤدِّ إلى أي نتيجة، فوليد طه كان يسير هادئًا دائمًا وسط الرجلين. كما أن المشي في الشوارع لم يكن مأمون العواقب، فبمرور الوقت بدأ وليد طه يلفت انتباه المارة لغرابة عنقه وسيقانه، ويجذب الأطفال للجري وراءه، لذلك أعاداه إلى السطوح وربطاه جيدًا. وبعد أسبوع من البحث الفاشل، قال أبو عبير:

t.me/qurssan

ـ وليد مش عايز يجري، وليد عايز يطير.

قال السُّنِّي بعد طول تأمل:

ـ يعوَّض عليك يا أشرف، اللي بيروح ما بيرجعش.

فتجمَّد أشرف في مكانه. وقال أبو عبير:

ـ إحنا جبناه هنا علشان تكلمه انت يا سُنِّي، جايز يسمع منك، هوَّ كان بيعزك أوي.

فأجابه السُّنِّي:

ـ وليد خلاص ما بقاش مننا، وكلامه ما بقاش كلامنا.

فانفعل أشرف:

ـ يعني نكلمه ازاي من الآخر؟

رمقه السُّنِّي وقال:

ـ إيه اللي رماك على الكار ده يا أشرف؟ كار الكيميا ده مش بتاعك، ياما قلتله ما يعومش على عومكم.

دار رأس أشرف فجأة وزاغت عيناه، ثم شخر وهو يصرخ:

ـ البضاعة فين يا ابن الزانية؟

وأمسك بالكرسي الذي كان يجلس عليه وهوى به على

t.me/qurssan

رأس وليد طه الذي أخذ يفحُّ مكشرًا عن أسنانه. بقيت قطعة من رِجل الكرسي في يد أشرف، فأخذ يضربه بها حتى انبجس الدم من رأسه. واستمر أشرف في الضرب إلى أن أمسك السُّنِّي به من ذراعه، وقال له بحدَّة:

ـ كفاية كده. الحاج طه هو برضو اللي مربيك يا أشرف.

كان الانفعال قد استبد بأشرف فوقف يصرخ في منتصف الحجرة وهو محتقن الوجه بكلام غير مفهوم. احتضنه أبو عبير بين ذراعيه، فحاول أشرف التملص بعنف، وكاد يلقي به أرضًا، لكن الأخير تماسك ولم يفلته. حتى هدأ أشرف أخيرًا، وأخذ ينظر إلى وليد طه وقال وهو يرتعش:

ـ هيَّ دي المعاملة اللي بينَّا يا وليد؟

ووليد طه انزوى إلى الحائط مادًّا رقبته أمامه وقوائمه ترتعش، ثم خارت قواه فانهار على الأرض، في حين وقف الآخرون حوله صامتين. مرَّت فترة قطعها السُّنِّي قائلًا:

ـ وليد هيبات هنا يا أشرف.

التفت إليه أشرف كأنه لم يفهم، ثم قال بصوت ضعيف:

ـ والبضاعة يا سُنِّي؟ وفلوسي يا سُنِّي؟ وليد هيفضل معايا لحد ما ينطق.

t.me/qurssan

فتدخل أبو عبير قائلًا:

ـ الدنيا اتأخرت والشوارع ملغَّمة اليومين دول، خليه هنا أحسن.

ووقف الرجال الثلاثة صامتين.

لم يغمض للسُّنِّي جفن، وقضى ليلته جالسًا يدخن وهو يستمع لعبد الوهاب. ومن حين لآخر يتناهى إليه واضحًا صفير تنفس وليد طه قادمًا من الحمام. مرت حياة بكاملها أمامه. حبسة طُرة الأولى مع الحاج طه. وليد الصبي يلهو بالمطواة. معركة كفر كعابيش التي أنهت سيطرة عصابة الدهشوري ليحل محلها الحاج طه ورجاله. حبسة طُرة الثانية. وليد الشاب يترك علاماته على وجوه خصومه، أخاديد رفيعة لا تختفي مهما طال بها الزمن. أفول عصر الحشيش وبزوغ عصر البانجو. وليد يتوَّج ملكًا على منطقة فيصل بفضل مهاراته الفائقة في استخدام السلاح. انتهى شريط الكاسيت وتوقف الجهاز، فانقطع خيط أفكار السُّنِّي. أخذ يصغي إلى صفير تنفس وليد طه الواضح في صمت الصالة، ثم قام واتجه إلى الحمام، وفتح الباب قليلًا ليتطلع مرة أخرى إليه وهو مربوط في كوع الحوض. سقط شعاع من الضوء على رأس وليد طه المقعي على بلاط

t.me/qurssan

الحمام فالتفت إلى مصدره. كانت عيناه فاحمتَي السواد. أخذ السُّنِّي ينظر إليه، ثم ذهب إلى المطبخ وحمل صفيحة سمْنة ملأها بالماء، وعاد إلى الحمام، ووضعها بجانبه. تحامل وليد طه على قدميه وغمس خطمه في الماء وأخذ يشرب على عجل. اقترب السُّنِّي منه فرفع وليد طه خطمه ونظر إلى السُّنِّي الذي جفل لوهلة، ووقف طويلًا مترددًا، ثم وضع يده أخيرًا فوق رأس وليد طه فزام الأخير. اطمأن السُّنِّي وتناول خرقة ملقاة وبللها بالماء، وأخذ يمسح آثار الدماء عن رأس وليد طه، ثم ربَّت عليه وهو يقول:

ـ إيه يا ليده، خلاص عيشتنا ما بقيتش عاجباك. بقيت حمار مخطط. وكمان مسخوط. طب مش كنت تبقى حمار عادي يا أخي علشان ما تلخبطناش؟ وبعدين الحمار المخطط ما بيطرش يا ليده.

قطع جرس الهاتف صمت الليل. رفع السُّنِّي السماعة، وكما توقع كان المتصل هو صلاح باشا، الذي قال:

ـ إيه اللي حصل للوله وليد؟

فأجاب السُّنِّي:

ـ إنت عرفت يا باشا؟

t.me/qurssan

فقال صلاح باشا غاضبًا:

ـ هوَّ لسه فيه حد ما عرفش! قولي إيه اللي جراله؟

فرد السُّنِّي:

ـ ما اعرفش، أهو عندي هنا.

طلب منه صلاح باشا أن يحضِره إليه فورًا، لكنه تحجج بأنه لا يستطيع أن يمشي بوليد طه هكذا في الليالي، فأنهى صلاح باشا المكالمة على عجل قائلًا إنه سيتجه فورًا إليه. ولم يمضِ نصف ساعة حتى كانت خبطات الباب تعلن وصول الباشا. وللمرة الثانية في هذه الليلة يتلقى السُّنِّي زيارة غير متوقعة، فصلاح باشا لم يسبق له أن زاره من قبل، وإنما كان يطلبه إلى القسم لديه مباشرةً إذا احتاج إليه. كان السُّنِّي قد أعدَّ الجلسة وشطف الجوزة قبل أن يصل ضيفُه. دخل الباشا وحده، ونظر السُّنِّي وراءه قبل أن يغلق الباب ليتأكد أن لا أحد بصحبته. وقبل أن يجلس طلب من السُّنِّي أن يريه وليد طه، فاصطحبه إلى الحمام وفتح له الباب. وقف صلاح باشا متجمدًا في مكانه وهو يرى وليد طه مقعيًا على بلاط الحمام الأبيض بجلده المخطط. تمتم:

ـ هوَّ ده وليد طه؟!

t.me/qurssan

ثم عاد إلى الصالة وأخذ مكانه. عمَّر السُّنِّي الجوزة وناولها لضيفه. سحب صلاح باشا أنفاسًا عديدة من دون أن ينطق، وامتلأت الصالة بالدخان ممتزجًا بصوت عبد الوهاب وهو يصدح بأغنية:

في البحر لم فُتُكم

في البر فُتُّوني

بالتبر لم بِعتُكم

بالتبن بِعتوني

شرد السُّنِّي متفكرًا في كلمات الأغنية، ثم انتبه على سؤال صلاح باشا:

ـ والعمل يا سُنِّي؟

فقال:

ـ اللي تقول عليه يا باشا.

وأضاف:

ـ فلوسك هتوصلك طبعًا، وربنا يعوض على أشرف في البضاعة اللي راحت.

فردَّ الباشا:

t.me/qurssan

ـ بضاعة إيه وفلوس إيه يا سُنِّي.

ثم صمت طويلًا وانهمك في سحب الأنفاس، إلى أن قال:

ـ بص يا سُنِّي، الكلام ده مليش فيه. المرة دي حمار مخطَّط، المرة اللي جاية سلعوة، كده الشغل مش هيمشي.

فقال السُّنِّي:

ـ مفيش مرة جاية يا باشا، أنا قعدت أفكر طول الليل في اللي حصل، وباقول وليد كده خِلِص، نسيبه في الصحرا اللي جنبنا وخلاص.

فرد صلاح باشا:

ـ بكرة غيره يعملها زي ما هوَّ عملها.

تنهد السُّنِّي ورصَّ أحجارًا جديدة. عاد صوت عبد الوهاب مرة أخرى إلى الصالة، كان يغني هذه المرة «مريت على بيت الحبايب». قطع صلاح باشا الصمت قائلًا:

ـ اللي مش عاجباه الشغلانة بيبطل وبنفتحله بيته وبيفضل راجلنا برضو، ووقت اللزوم بيعملنا مصلحة. لو حد من رجالتي وقع واتقبض عليه، كنت أطلعه تاني يوم. لو بضاعة اتمسكت كنت أجيبها ليلتها. لكن اللي عمله

t.me/qurssan

وليد ده هيبوظلي الشغل كله. كله إلا ده. إيه فاكر إنه كده هينفد بجلده؟ لا يا روح أمك منك ليه، فوقوا!

بعد رحيل الحاج طه، تغيرت الدنيا، وتاه السُّنِّي في دروب عالم جديد، فقد شحَّ الحشيش، وجفت منابعه، وظهر البانجو الرخيص وزاد الإقبال عليه، وامتلأت المهنة بكل من هبَّ ودبَّ، يتاجرون بكل ما تقع عليه أيديهم من مخدرات. صغار في عمر أبنائه يدخلونها أملًا في الإثراء بعد خبطة أو اثنتين، وباشوات أصغر من أبنائه يشرفون على العمل لتحقيق أكبر مكاسب ممكنة في أقصر وقت ممكن. أصبح العمل يدور كعزبة يعمل بها أنفار. يستدعيه صلاح باشا على فترات متباعدة إلى القسم، ويضع حذاءه على رقبته، ويطلب منه أن يقوم بتصريف بضاعة، أو يسأله عن تفاصيل تتعلق بعملية ما. شهد السُّنِّي هذه التحولات وما تلاها، وفشل في الاحتفاظ بمكانته، فآثر الانزواء بعيدًا في مساكن كفر الجبل المتاخمة لصحراء الأهرام. عصابة الحاج طه انفرط عقدها سريعًا بعد موته، وأخذ الجميع يثرون من حول السُّنِّي وهم يلحقون بعصر الباشوات الجديد، بينما أصر هو على الاكتفاء بتجارة الحشيش عبر علاقاته القديمة. ومع الوقت انفض الجميع من حوله،

t.me/qurssan

ولم يبقَ له سوى أن يعود للعمل «الفَرَداني» بعد أن تجاوز الستين. مجرم هرِم لا يثير الهلع في قلوب من يثبِّتهم في الشوارع، وينقب عن أكل عيشه وسط الصبية، ولولا بعض التقدير لماضي السُّنِّي من قِبل رجال المهنة الميسورين لما استطاع حتى العيش في شقته البسيطة تلك، فمن حين لآخر يتذكره أحدهم فيمر عليه ويترك له مبلغًا يصرِّف به حاله. كان السُّنِّي يقضي وقته في شقته المنزوية وحيدًا، ينزل أحيانًا ليتمشى وسط الناس الذين لم يرَ كثير منهم قسم شرطة في حياته. يتمتم باقتضاب: «كله بيعدي»، ثم يعود إلى بيته.

تقدم الليل وهدأت الأنفاس. أشعل صلاح باشا سيجارة، وذهب السُّنِّي إلى المطبخ ليصنع شايًا. عندما عاد قال صلاح باشا فجأة:

ـ مطوتك فين يا سُنِّي؟

تطلع إليه السُّنِّي وقد أطبق عليه رعب هائل، ثم قال:

ـ يا باشا وليد غِلط، بس كان طول عمره الراجل بتاعك.

فقال الباشا:

ـ الموضوع بقى أكبر من وليد يا سُنِّي.

t.me/qurssan

أجاب السُّنِّي:

ـ يا باشا وليد ما بينطقش زي ما شفت، لو سيبناه في الصحرا محدش هيدرى بيه.

أصبح الباشا الآن هادئًا تمامًا، وقال:

ـ الدنيا دي مش فوضى يا سُنِّي، الدنيا دي مفيهاش غير يا قاتل يا مقتول، يا حكومة يا تاجر، والاتنين في إيدينا، مفيش حاجة تانية، مفيش بني آدمين بتبقى بهايم، وبهايم بتبقى بني آدمين.

ـ يا باشا وليد ما بقاش مننا، بقى بهيمة لا ليها ولا عليها.

ـ وليد لسه في البهيمة ولازم ياخد جزاءه.

ـ يا باشا وليد راح خلاص.

ـ يبقى البهيمة لازم تروح هيَّ كمان.

ـ يا باشا بلاش أنا يا باشا.

ـ نعم يا روح أمك! قلتلك مطوتك فين؟

سكت الرجلان ثم قال السُّنِّي متلعثمًا:

ـ بلاش أنا يا باشا، حد تاني يا باشا.

حدجه الباشا من دون أن يفتح فمه، فوجم السُّنِّي.

t.me/qurssan

قُرب الفجر وقف السُّنِّي خلف وليد طه جامدًا ومطواته في يده، وصلاح باشا يراقبهما. استدار وليد طه برأسه محاولًا النظر إلى السُّنِّي، لكن الأخير منعه، ثم انقض على رقبته بذراعه وثناها إلى أعلى وهو يصرخ: «عاااه» وحزَّ عنقه من الوريد إلى الوريد، فشخب الدم في كل الاتجاهات، وأخذ وليد طه ينتفض مُصدرًا خوارًا هائلًا ورقبته في ذراع السُّنِّي، حتى خمدت حركته، فأطلقه السُّنِّي، وتهاوت الجثة على بلاط الحمام الذي أصبح دبقًا بفعل الدم المسفوح.

عندما وصل أشرف وأبو عبير كان السُّنِّي جالسًا في الصالة زائغ العينين. دخل أبو عبير من فوره إلى الحمام ووقف يتأمل المشهد، ويقدِّر حجم العمل المطلوب. كانت طرطشات الدم قد طالت سقف الحمام. ثم جاءت جلبة من الخارج، فغادر الحمام ليرى السُّنِّي واقفًا بجانب الشباك المكسور وممسكًا بتلابيب أشرف، وفي يده الأخرى مطواته المفتوحة. كان أشرف يقف جامدًا ينظر بثبات في عينَي السُّنِّي، وذراعاه متدليتان بجواره، والسُّنِّي يقرِّب وجهه من وجه أشرف حتى يكاد يلتصق به، شاهرًا مطواته المخضبة بالدم. أمسك أبو عبير بذراع السُّنِّي

t.me/qurssan

وحاول إبعاده، بعد أن رأى جنون الدم في عينيه، لكن السُّنِّي قرَّب وجه أشرف أكثر إليه حتى شعر كل منهما بنفَس الآخر، إلى أن نجح أبو عبير في الفصل بينهما، فانفلت قميص أشرف من قبضة السُّنِّي، لكنهما ظلا يقفان كما هما أمام أحدهما الآخر. أخرج أبو عبير سجائره وأعطى كلًّا منهما سيجارة ثم عاد إلى الحمام. خلع شبشبه الجلدي ونحاه جانبًا، وحمل الجثة ووضعها في البانيو الصغير، ثم أوصل الخرطوم بحنفية الحوض، وفتحه ليتدفق الماء إلى الأرضية. بدأ تيار الماء يذيب كتل الدم المتجلطة ويدفعها نحو البالوعة، أما الكتل التي بقيت ملتصقة فكان أبو عبير يحكها بقدمه ليكشطها، ثم أزال طرطشات الدم عن بلاط الأرضية والحائط بخرقة، بعدها أزاح المياه المتجمعة بالمسَّاحة وفرش بشكيرًا أبيض على الأرضية، وحمل الجثة من البانيو ووضعها فوق البشكير النظيف. طواه وأغلقه جيدًا، فتغير لونه إلى الأحمر الزاهي بعد أن تشرب بالدم، ثم وضعه في كيس زبالة أسود.

صفق أبو عبير شنطة السيارة وركب بجوار أشرف. قاد أشرف السيارة حتى تجاوز منطقة الإنشاءات ثم انعطف في طريق ترابي غير ممهد، تحف به الأشجار والحقول

t.me/qurssan

من الجانبين. سارت السيارة تلفُّها موجات من الغبار الكثيف، إلى أن وصلت إلى مقلب القمامة المهجور، فأوقفها أشرف بجواره، ثم أطفأ المحرك وترجَّل الرجلان من السيارة. وقفا قليلًا يتطلعان حولهما. لم يبقَ من المدينة سوى صف بعيد من البيوت الصغيرة المبنية بالطوب الأحمر الكابي، مُحاط بلون أخضر باهت. قال أبو عبير:

ـ طب عليَّ الحرام وليد طه اتعمله عمل يا جدعان ومحدش مصدقني.

فنظر إليه أشرف صامتًا. ثم فتح أبو عبير شنطة السيارة ورفع الجثة بحركة واحدة قوية على كتفه. تناول أشرف طرف الكيس، وأمسك أبو عبير بطرفه الآخر، وأخذا يطوحانه مرتين، ثم أطلقاه فاستقر في أحد جوانب كومة القمامة الهائلة مُصدرًا صوتًا مكتومًا. نظر الرجلان إلى الكيس وقد تمزقت أجزاء منه بفعل الصدمة، وبانت أطراف البشكير المحاطة به الجثة، ثم ركبا السيارة وانطلقا.

t.me/qurssan

الخطوة المعلقة

جلستُ أدخن على مقعد محطة الترام الظليلة وأنا أتابع تيار السيارات المتجلِّط في نهر الشارع. كانت حرارة الجو لافحة، حتى إن أسفلت الطريق بالقرب من المحطة أصبح لدِنًا وانطبعت عليه بصمات آلاف العجلات. ازدادت موجات الضجيج حدةً من حولي رغم الجمود المسيطر على الشارع، وأخذت تتنوع وتعلو وتهبط وتتجزأ إلى ملايين التفاصيل والذرات الصوتية التي تهب من كل مكان. رفَّة سيور المحركات، هسيس مكابح الفرامل، قرقعة عربات الترام، نفثات عوادم السيارات، ضجيج الكلاكسات، فحيح الحرارة المنبعثة من المحركات، صراخ الأطفال، زعيق الكبار، هدير حديث من يجلسون حولي. كل تلك الأصوات كانت تتداخل وتتضاغط ثم تتنافر وتتباعد داخل أذني

t.me/qurssan

وأنا ساكت، حتى فرغتُ من السيجارة فنترتها بحركة من سبابتي وإبهامي لتتناثر شظايا عقبها على حافة الطريق. وفي اللحظة التي استويت فيها واقفًا لكي أغادر المحطة، شعرت فجأة أن شيئًا خطيرًا قد حدث داخلي، بل تيقنت من دون سبب واضح أنني أخلِّف ذاتي إلى الأبد هنا، وأتركها تتبدد ورائي وسط فيض الأصوات التي تعم الشارع. لا أدري ما الذي حدث بالضبط، لكني كنت متأكدًا أن ما حدث لا يمكن محوه أو التراجع عنه.

عبرتُ شارع الحجاز إلى الناحية الأخرى، ثم سرت في سلسلة من الشوارع الجانبية وأنا أتصبب عرقًا حتى وصلت إلى باب العمارة في «سنان باشا»، فارتديت جاكت البدلة وأحكمت ربطة العنق وتأبطت حقيبتي، وصعدت إلى الطابق الثاني. فتحت لي السكرتيرة الباب وعادت إلى مكتبها بجانب المدخل، وكانت بجوارها مروحة تُصدر أزيزًا عاليًا. سألتها عن مجدي بيه، فسألتني إذا ما كان الأمر يتعلق بالسنترال فأومأت بالإيجاب، فقالت لي إنه اضطر إلى الخروج في مشوار مستعجل، وإنه يعتذر ويطلب مني أن أعود بعد ساعة.

t.me/qurssan

سألتُ:

ـ بعد ساعة؟

أجابت:

ـ بعد ساعة.

وقفتُ أنظر إليها حائرًا وهي تنظر إليَّ من وراء مكتبها برأس مائل قليلًا، وقد انسدلت خصلة من شعرها المصبوغ على عينها اليسرى فرفعتها إلى الأعلى قليلًا. ثم تطلعتُ حولي وأنا أشعر بلزوجة العرق، وطلبتُ منها كوب ماء، فأشارت إلى مكان المطبخ. فتحت باب الثلاجة بحثًا عن زجاجة مياه باردة فلم أعثر، فذهبت إلى الحوض الطافح بالأطباق المتسخة وبحثت وسطها عن كوب فلم أجد، لكني وجدت زجاجات مياه معدنية صغيرة ملقاة فوق الرخامة، فغسلت إحداها وملأتها بماء الحنفية الساخن وأخذت أتجرعه. أحسست بها تدخل المطبخ وتقف ورائي، ثم اقتربت مني حتى شعرتُ بحرارة أنفاسها وهي تقول:

ـ الحَر لا يطاق، أليس كذلك؟

فاستدرت إليها ورأيت أنها كانت أقصر مني بنحو شبر، وأن لون الروج الذي كانت تضعه أصبح أشد حمرة مما كان عليه عندما دخلت المكتب. قلت لها:

t.me/qurssan

ـ نعم، الدنيا نار بالفعل.

ـ بإمكانك انتظار مجدي بيه هنا إذا رغبت.

ـ شكرًا. ولكني لا أحب أن أعطلك.

ـ من هذه الناحية لا تقلق.

أخذت المسافة بين وجهينا تصغر، فشممت رائحة عرقها مختلطًا ببارفان خافت، ورأيت الزغب الذي ينمو حول شفتيها واضحًا. وعندما لاحظَتْ وقوع عينيَّ على شفتيها، رطبتهما ببطء بلسانها فتألق لون الروج الأحمر. قلت لها:

ـ الأفضل أن أذهب الآن وأعود بعد ساعة.

فهمست من دون أن تحرك عينيها:

ـ ناري أم نار الشارع يا عبيط؟

ثم التصقت بي قابضةً بيديها على مؤخرتي، وأخذت تلحس رقبتي، فامتزج لعابها بعرقي.

وقفتُ لدقائق في نور الشمس المبهر أسفل العمارة أفكر فيما يتعين عليَّ أن أفعله الآن، وتذكرت أن ساعة الذروة

t.me/qurssan

قد حانت ولا يوجد شارع سالك في المدينة، فسرتُ من دون هدف في شوارع مصر الجديدة التي لا أعرفها جيدًا. كانت الشوارع تضيق شيئًا فشيئًا بالعمارات والسيارات المصفوفة فيها، وكلما أوغلتُ فيها ازداد ثقل خمول الظهيرة الذي يخيم عليها، وازداد جوعي الذي أخذ يقرصني، حتى حملتني قدماي إلى محل يدعى بيانو، كُتبت حروف لافتته على شكل أصابع بيانو بيضاء وسوداء متفرقة مرسومة على خطوط نوتة موسيقية. بدا أن به طعامًا وأنه مُكيف من الداخل، فهرعت إليه. كان الزبائن يطلبون طلباتهم من الكاشير في الجانب الأيمن من المحل، ثم يحصلون عليها من فتحة مجاورة في الحائط، ويأكلونها إما وهم واقفون متطلعون إلى شاشات التلفزيون المضيئة، أو في الزاوية التي يوجد بها بعض المقاعد والطاولات. اتجهت إلى البائع الذي كان يرتدي «كاب» أحمر، ورغبت في أن أطلب قطعتَي بيتزا مارجريتا، لكن قبل أن أتكلم أعلمني بالعرض الخاص الذي يقدمه المحل اليوم، والذي يتضمن ساندويتش تاكو جامبو باللحم والمشروم ومشروبًا خفيفًا وقطعة من الكعك الروسي بسعر مخفَّض. بقيت ساكتًا، فشجعني قائلًا إنه عرض جيد، فقررت أن أطلب

t.me/qurssan

العرض الخاص. ووقفت أجفف وجهي ورقبتي من العرق بمناديل ورقية وجدتها بجانب ماكينة الحساب، بينما أتطلع إلى صور الآكلين المنعكسة على المرايا التي تغطي جدران المحل، حتى نُوديَ على طلبي، فاستلمت عرض اليوم الخاص وحملته متوجهًا إلى طاولة لكي أتناول طعامي جالسًا، لكن شيئًا ما لفت انتباهي في أثناء مروري بجانب إحدى المرايا، فعدت ثانيةً إلى جانب المرآة والطعام في يدي وبقيت أتطلع فيها إلى أن فهمت الأمر. فما سبَّب استغرابي عند مروري بجوار المرآة كان غرابة صورتي التي لمحتها بطرْف عيني في أثناء مروري، فقد كانت صورتي باهتة وأكثر خفوتًا من الصور الأخرى. كان المشهد يبدو كأن أحدهم قد حرك مؤشر سطوع صورتي إلى اليسار في المنطقة السالبة بنسبة ١٠ بالمائة على الأكثر. نسبة ليست كبيرة، لكنها كافية لكي يظهر فرق بينها وبين باقي الصور التي تُركت على حالها إذا ركز المرء جيدًا. أخذت أتأمل صور الواقفين المنعكسة في المرآة وهم يأكلون باستغراق ويستمعون إلى أنغام الأغاني القادمة من شاشة التلفزيون وأنا أقف وسطهم باهت الصورة مقارنةً بصورهم، بل كنت أرى صورة ساندويتش التاكو وزجاجة الكولا وقطعة الكعك في المرآة أكثر وضوحًا

t.me/qurssan

من صورة يدي التي تحملهم. بقيت لحظات أنظر حائرًا إلى صور المرآة ثم أكملت طريقي إلى الطاولة لأتناول طعامي.

بدأت أقضم في ساندويتش التاكو وأنا أحاول معرفة منذ متى بهتت صورتي، لا بد أنها بدأت في الخفوت خلال هذا اليوم، فأنا قد حلقت ذقني صباحًا ولم ألحظ شيئًا في المرآة، أي أن صورتي بدأت في الخفوت في الفترة ما بين خروجي من منزلي ودخولي هذا المحل. بعد أن أنهيت الساندويتش مسحت فمي بالمنديل، ثم تناولت قطعة الكعك الروسي، وحاولت تذكر ما إذا كنتُ قد رأيتُ صورتي في أسانسير عمارة الزمالك، حيث كان موعدي الأول هذا الصباح. الأسانسير كان قديمًا ومرآته فقدت جلاءها وعلاها النمش، لذلك فإنني حتى لو كنت قد تطلعت إلى صورتي، فمن المستحيل أن أكون قد رأيت أي شيء بوضوح. كان الطعام طيبًا والجو منعشًا في المحل بفضل التكييف فقررت البقاء مدة أطول، وقمت وطلبت قطعة كعك روسي أخرى وفنجان كابتشينو، فسألني البائع إن كنت أود كابتشينو بنكهة اللوز أم بنكهة الكرامل، فآثرت نكهة اللوز. في

t.me/qurssan

الطريق إلى طاولتي فحصتُ صورتي مرة أخرى وهُيئ إليَّ أنها ازدادت شحوبًا، لكني لم أكن متأكدًا. تطلعت إليها من كافة الزوايا الممكنة ولم أخرج بنتيجة قاطعة. وعندما عدت إلى طاولتي أخذ تفكيري منحى متشائمًا، فقد بدأت أفكر في إمكانية أن تكمل اليد التي تحرك مؤشر السطوع ضغطها، ما يعني أن صورتي ستختفي تدريجيًّا في الساعات القادمة إذا استمر الأمر بهذه الوتيرة. وأخذت أفكر في المشكلات التي سأواجهها جراء اختفاء صورتي من المرآة. وحانت مني التفاتة حولي فوجدتني أجلس وسط صبايا وصبيان في صدر شبابهم، بعضهم يجلس وحيدًا ويتطلع إلى حاسبه الشخصي، وبعضهم يتحلق في جماعة حول حاسب واحد. بعضهم يلقي بنكتة فيضحك الآخرون، وبعضهم صامت يستمع. بعضهم نبتت له زبيبة على جبهته، وبعضهن ارتدين الحجاب. رشفتُ من فنجان الكابتشينو بنكهة اللوز محاولًا الاسترخاء أكثر في هواء التكييف البارد وأنا لا أزال أفكر في موضوع صورتي المتوارية. وفجأة وجدت رجلًا يقف أمامي ويحييني طالبًا السماح له بالجلوس إلى طاولتي. فقلت له وأنا أتطلع إليه:

ـ بالطبع، تفضل.

وشككت أن يكون ابن مهنتي. ثم سألني:

t.me/qurssan

ـ ألا تتذكرني؟

أخذت أتفرس في وجهه باحثًا عن أي علامة تساعدني، لكني لم أتمكن من معرفة مَن هو. طلبت منه أن يساعدني، فقال مبتسمًا وهو ينظر إليَّ:

ـ لا عليك، ستعرفني بالتأكيد بعد قليل.

كان يرتدي مثلي بدلة وربطة عنق ويحمل حقيبة جلدية، وإن كانت ملابسه أكثر أناقة من ملابسي، فقد لاحظت أن قميصه ماركة «دانيال هيشتر». قال:

ـ أرجو ألا أكون أعطلك عن أي شيء.

ـ لا أبدًا، لا شيء مهمًّا.

استوى على المقعد المواجه لي وسألني وهو يبتسم في وجهي:

ـ كيف الحال؟

ـ ماشي الحال.

ـ تبدو شاردًا.

ـ أبدو شاردًا أم شاحبًا؟

ـ بالعكس وجهك ممتلئ بالحيوية، ولكنك في الحقيقة تبدو كشخص... لا أعرف كيف أصف ذلك، تبدو

t.me/qurssan

كشخص قادم من مكان آخر، أو ربما كشخص موجود في المكان الخطأ.

ـ هكذا؟!

ـ لكن لماذا تظن أنك تبدو شاحبًا؟

ـ أبدًا.

سكت محدثي قليلًا وأخذ يتطلع حوله، وعَلا صوت التلفزيون مختلطًا بأصوات المحيطين. وأنا فكرت في معنى أن الرجل لا يلاحظ فيما يبدو تواري صورتي، وأن البائع من قبله لم يُعلق أيضًا على الأمر، لذلك استنتجت أن التغيُّر الذي يعتري صورتي إما أنه لا يزال ضعيفًا بحيث لا يلاحَظ، أو أنني وحدي من يستطيع ملاحظته. أخيرًا قال لي الرجل مُغيرًا الموضوع:

ـ هل تعرف من المغنية التي تغني الآن؟

أصغيتُ إلى الموسيقى المنبعثة من التلفزيون للحظات ثم هززت رأسي نافيًا، فقال:

ـ أحتارُ دائمًا في تمييز مغنيي هذه الأيام.

ـ أنا أيضًا لم أعد أعرف سوى أسماء قدامى المغنِّين.

ـ الموسيقى قد تغيرت كثيرًا.

t.me/qurssan

ـ صحيح، الموسيقى تغيرت كثيرًا.

ـ هل تسمح لي بسؤالك ماذا تسمع هذه الأيام؟

استغربت السؤال لأنه ينطوي على معرفة باهتمامي بالاستماع للموسيقى، ثم أجبته قائلًا:

ـ هذه الأيام لا أسمع شيئًا عمدًا، أكتفي من حين لآخر بتشغيل الراديو.

فابتسم محدثي ابتسامة واسعة، لمعت خلالها عيناه لمعة مألوفة، عندها هتفتُ:

ـ مستحيل! جدُّو!

كان هو عبد المجيد صديق دراستي الثانوية. كيف غاب وجهه عن ذاكرتي؟! نظرتُ إليه متفحصًا، وشيئًا فشيئًا بدأت أرى الآثار التي خلفتها السنين على وجهه، لُغداه ترهلا بعض الشيء، وعينه اليمنى جحظت أكثر من اليسرى، ونمَت له حسنة صغيرة على أرنبة أنفه، كما أن معظم شعر رأسه قد سقط. وللمرة الثانية في هذا اليوم أتوقف عند تغيرات صورة الوجه، فوجه جدُّو الذي أراه أمامي بعد أن ميزته هو نسخة معدلة قليلًا من وجهه كما أعرفه. التغيرات التي اعترت وجهه ليست تغيرات كبيرة باستثناء الشعر، لكنها

t.me/qurssan

كانت كافية لكي تبعد وجهه عن متناول ذاكرتي، وتبقيه في منطقة رمادية غائمة، كأني أنظر إلى الصورة فأرى صورة قريبة منها، لكنها ليست الصورة نفسها.

قال جدُّو:

ـ يا لها من صدفة غريبة، أليس كذلك؟ ماذا تفعل أنت هنا في مصر الجديدة؟

فقلت له:

ـ أبدًا، أنا هنا في عمل. وأنت؟

فقال إنه أصبح شريكًا في شركة للمقاولات يقع مقرها في شارع سميكة القريب، وروى أنه سافر سنوات إلى الكويت بعد أن أنهى دراسة الهندسة المدنية، وعاد قبل عام، وقرر أن يستثمر ما جمعه في الغربة في تلك الشركة، فسوق العقارات في مصر تشهد انتعاشًا كبيرًا هذه الأيام.

ثم سألني وهو يتطلع إليَّ:

ـ وأنت؟ ماذا تعمل؟

ـ لا زلت أعمل مندوبًا.

ـ كيف؟ أتذكر أنك بدأت عمل مندوب المبيعات ونحن في المدرسة الثانوية.

t.me/qurssan

ـ صحيح. كنت أعمل من حين لآخر في أثناء الإجازات الصيفية، وبعد الجامعة قلتُ أُكمل في المبيعات حتى أعثر على شيء آخر، وكما ترى لم أعثر على شيء آخر وبقيت فيها إلى اليوم.

ـ المهم أن تكون مرتاحًا فيها.

ـ لا بأس بها، كما أني لا أحب التغيير كثيرًا. ومع الوقت أصبحتُ قديمًا في المهنة، أكتفي بالقيام بطلعة أو طلعتين في اليوم ثم أعود إلى منزلي.

ـ وكيف كانت طلعاتك اليوم؟

ـ اليوم كان لديَّ موعدان، الأول في الزمالك حيث زُرت أحد العملاء لتسليم جهاز سنترال الاتصالات الذي بِعته له قبل أسبوع، لكنه رفض من دون إبداء أسباب استلام الجهاز، كما رفض دفع الفاتورة، وطردني من المكتب. موعدي الثاني كان هنا في مصر الجديدة لعرض جهاز شبيه على عميل آخر، لكني لم أجده، وإنما وجدت سكرتيرته التي ضاجعتني في مطبخ المكتب.

سألني جدُّو:

ـ هل تتذكر مقهى المهدي؟

t.me/qurssan

ـ المهدي؟ لا. أين يقع؟

ـ مقهى المهدي جلسنا فيه في مطلع التسعينيات مرات قليلة، وكان المكان الذي تحدثنا فيه عن مصطلح المقاهي المغلقة، حيث كان ذلك المقهى واحدًا من أوائل المقاهي في فيصل التي وفرت أماكن معزولة للجلوس بعيدًا عن زحام الشارع، فكان الشباب البرجوازي يقبِل على الجلوس فيها خاصة في الطابق الثاني المعزول، وأنت رأيت في ذلك تغييرًا كبيرًا في مفهوم المقهى باعتباره مكانًا كان مفتوحًا دائمًا على الشارع.

استعدت الوقع المألوف لصوت جدُّو في أذني، مخارج حروفه واضحة ويعطي لكل كلمة حقها في الكلام فلا تخرج كلماته متداخلة أو متراكبة، وإنما سليمة بلا لبس أو تردد. لكنه عندما يصمت الآن، تختلط كلماته بكلمات وأصوات آخرين، ويتردد وقع صوته في أذني ضمن جوقة من أصوات الماضي الغاربة، جوقة تمر كسحابة غير منتظمة الشكل، تحمل معها أصوات طلبة آخرين، أصوات أساتذة، «مارش عايدة»، تحية العلم. أجبته:

t.me/qurssan

ـ لا أتذكر هذا المقهى نهائيًا. ما الذي ذكرك به الآن؟

ـ لا أدري. لقد خطر على بالي وأنا جالس أنظر إليك. كثيرًا ما تذكرت هذه الملاحظة بعد أن تغيرت المقاهي، وتغير الجالسون فيها.

وأدار جدُّو رأسه حول المكان وكرر وهو غير مصدق:

ـ إنها حقًّا صدفة غريبة.

أنا وجدُّو كنا صديقين حميمين في مرحلة اكتشاف عالم المقاهي قبل أن يصبح الجلوس فيها روتينًا. كان يحلو لنا كثيرًا أن نقفز فوق سور المدرسة بعد الفسحة أيام أولى ثانوي، ونتسكع في مقاهي فيصل المجاورة، نقضي وقتنا في تدخين السجائر والاستماع إلى الأغاني الدائرة فيها، قبل أن نوسع ميدان استكشافنا ليضم مقاهي الجيزة ووسط البلد. لكننا تباعدنا بعد ذلك خلال سنوات الدراسة التالية، ولم أسمع شيئًا عنه بعد الثانوية العامة. قلت له:

ـ معك حق، صدفة غريبة أن نلتقي بعد كل هذه السنوات هنا في مصر الجديدة، وليس في مقهى مثلًا في وسط البلد. ها نحن نجلس في مكان يدعى بيانو وسط شباب

t.me/qurssan

يصغروننا بعشرين عامًا على الأقل، نستمع إلى مغنِّين لا نعرفهم ونشرب كابتشينو بنكهة اللوز.

أطلعني جدُّو على صورة تناولها من محفظته وأشار إلى اليمين قائلًا:

ـ هذه جنَّة.

نطقها بجيم فصيحة.

ـ والأخرى مِنَّة.

تأملت البنتين الصغيرتين والمرأة المحجبة التي تقف بينهما، ثم أرجعت له الصورة وأنا أثني على جمالهما وأدعو الله أن يحفظهما له. نظر إليَّ عبد المجيد قليلًا ثم سألني:

ـ وكيف يعيش الإنسان المُطلَّق هذه الأيام؟

فأجبته:

ـ يعيش وحيدًا في بيته.

فتابع السؤال:

ـ وماذا يفعل وحيدًا في بيته؟

فقلت له:

t.me/qurssan

ـ يستمع بين الحين والآخر إلى الراديو.

ثم ابتسمت له قائلًا:

ـ منذ مدة أواظب على سماع صوت جمهورية الصين الشعبية، المذيعون يتحدثون العربية الفصحى بلكنة صينية لم أسمعها من قبل.

ـ صينيون يتحدثون العربية! لكن لماذا؟

ـ لا أدري، لا بد أنها إذاعة موجهة باللغة العربية.

ـ عن ماذا يتحدثون؟

ـ بالأمس سمعت برنامجًا عن نجاح بكين في تنظيم دورة الألعاب الأولمبية هذا العام، ومدى الجهد الذي بذله الحزب من أجل تذليل جميع العقبات والخروج ببطولة مشرفة.

ـ وماذا يعجبك في سماع هذه الدعاية الصريحة؟

ـ تعجبني كثيرًا الخنفة التي يتحدث بها المذيعون رغم عربيتهم السليمة.

أبدى جدُّو استغرابه من هوايتي الاستماع إلى الإذاعة الصينية لبعض الوقت، ثم انتقل بالحديث للخوض في الوضع السياسي العالمي، ومظاهر ازدياد نفوذ المارد

t.me/qurssan

الصيني، مدللًا على كلامه بخبراته التي اكتسبها من خلال احتكاكه بعالم البيزنس، ثم عرج على جمود وملل الوضع السياسي المحلي، ولم أعرف ماذا أقول فبقيت أستمع إليه صامتًا. ثم قطع حديثه فجأة ليقول:

ـ هل تذكر محمد شاينا؟

وكان يقصد أحد زملاء الدراسة السابقين، الذي اكتسب اسمه بسبب عينيه الضيقتين ووجهه المستدير كالصينيين. فقلت له:

ـ نعم أتذكره، لقد سمعت قبل فترة أن البانجو لحس عقله، وأنه فقدَ القدرة على الكلام.

ـ صحيح؟ وماذا عن مؤنس؟ لقد كان هو من أدخل البانجو إلى المدرسة.

ـ مؤنس انضم إلى الجهاد.

احتاج جدُّو للحظات لكي يربط المصائر التي أخبرتُه بها بوجوه أصحابها في رأسه ثم قال:

ـ أتعرف؟ أعتقد أن المدرسة الثانوية كانت أجمل مرحلة في حياتي، قابلت فيها أناسًا لن تتاح لي الفرصة بعدها لمقابلتهم. لم نكن وقتها مقيدين بمسؤوليات أو التزامات، وكانت لدينا أيام لا تنتهي نقضيها في

t.me/qurssan

اكتشاف أنفسنا والآخرين. أما اليوم فكل ما أفعله هو أني أُنفذ برنامجًا موضوعًا سلفًا، ولا أستطيع الخروج عليه. كم أحن كثيرًا إلى نفسي التي خلفتها ورائي على مقاعد المدرسة.

بعد أن دخنَّا سيجارتين في الخارج اقترح جدُّو أن نشرب فنجانَي كابتشينو آخرين، وأصر على دعوتي. هذه المرة اخترتُ نكهة الكرامل. هدأت الحركة في المكان قليلًا، وجلسنا على طاولتنا نحتسي الكابتشينو. قلت:

ـ وأنت، ماذا تسمع الآن يا جدُّو؟

فأشاح بيديه وأجاب:

ـ لقد اندثرت مكتبتي الموسيقية مع الزمن، لم يبقَ منها سوى شريط كاسيت أو اثنين أسمعهما من حين لآخر في السيارة، ما عدا ذلك لا أستمع إلى شيء. إيقاع العمل يزداد حدة، خاصة بعد أن دخلنا في مشروع مشترك مع شركة مقاولات كويتية. بالأمس حضرت ٤ اجتماعات، وغدًا سأسافر إلى الكويت لعقد مزيد من اللقاءات.

هززت رأسي مؤمِّنًا على كلامه.

t.me/qurssan

مضت برهة جلسنا فيها صامتين، ثم قال جدُّو:

ـ هل تعرف أن لقاءنا صدفة غريبة حقًّا، ليس لغرابة المكان أو لمجيئه بعد طول افتراق، وإنما لأن شعورًا غريبًا يلازمني طوال اليوم، فمنذ أن نزلت من بيتي وأنا أشعر أنني أعيش في يوم آخر قادم من الماضي، وهأنذا ألقاك. هذا هو مصدر غرابة الصدفة.

ـ أنا أيضًا شعرت بأمر غريب اليوم، فقد كنت جالسًا في محطة الترام لكي أدخن سيجارة في الظل قبل موعد مصر الجديدة، ثم شعرت وأنا أنهض أن شيئًا داخلي قد تغير بشكل نهائي، وبأني تركت ذاتي على كرسي المحطة.

ـ غريبة! وما إذن ملامح ذاتك الجديدة التي اكتسبتها؟

ـ الغريب أني لم أشعر بأني اكتسبت أي ذات جديدة، كل ما في الأمر أني شعرت بأني أفقد ذاتي القديمة.

ففكر جدُّو لوهلة، ثم انفجر فجأة ضاحكًا وقال:

ـ أصبحت إذن من الذين يسمونهم في الكويت فئة البدون!

نظرت إليه باستغراب وقلت له:

ـ تقريبًا.

t.me/qurssan

تأملني جدُّو قليلًا بود ثم قال:

ـ كم عمرك الآن؟

فأجبته:

ـ ٣٧ سنة. هل نسيت أننا في العمر نفسه؟

فتابع أنه يخمِّن أن وراء شعوري بالخروج عن ذاتي القديمة رغبة مستترة في تغيير حياتي، وأنه يجدر بي أن أفكر في إدخال تجديد ما على حياتي، عمل جديد أو هواية، أو ربما حب جديد. ثم طلب مني جادًّا أن أحاول الآن رسم الطريق الذي سرت عليه فيما مضى من حياتي في ذهني، وبعدها عليَّ أن أجيب عن هذا السؤال: هل أرغب في المضي في هذا الطريق إلى النهاية؟ أم لعلي أرغب في سَلْك طريق آخر الآن؟

فكرت طويلًا في سؤال صديقي وأنا أتطلع إليه. وتخيلت أني أصعد إلى تبة عالية وأشرف على سنوات حياتي التي ترعى ساكنة أسفل الوادي، محاولًا رسم الطريق الذي تحدث عنه جدُّو، لكني لم أجد في النهاية إجابة عن سؤاله. جدُّو كان، على عكسي، موهوبًا في استخلاص النتائج من المقدمات، هناك دائمًا جزء يقظ في عقله يحلل الموقف في هدوء. عندما كنا نتسكع بين المقاهي،

t.me/qurssan

كنت أجلس أنا مسترخيًا أراقب الشارع في حين يبدي هو ملاحظات حول نوعية رواد المقهى، وكفاءة القهوجي، ومستقبل المقهى إذا استمر على تلك الحال. ثم قلت أخيرًا:

ـ أنا لا أريد فعل أي شيء يا جدُّو، كل ما أرغب فيه بصدق هو أن لا أفعل أي شيء على الإطلاق.

ـ ما زلت رومانسيًّا كما كنت يا صديقي.

تطلع جدُّو إلى ساعته وقال إن عليه أن يذهب الآن لكي يحضر بنتيه من الحضانة، وسألني إذا ما كان بإمكانه أن يوصلني إلى مكان ما في طريقه، فشكرته وقلت له إن عليَّ أن أعود لرؤية العميل الذي لم أجده. ثم أخرج محفظته وسحب كارتًا منها وناولني إياه، ورجاني أن نبقى على اتصال، بل واقترح أن ننظم خروجة مع أصدقاء المدرسة القدامى من الذين لا نزال على اتصال بهم لكي نستعيد الذكريات. ثم ابتسم قائلًا:

ـ أعتقد أن مكتبنا بحاجة إلى سنترال اتصالات. لماذا لا تمر عليَّ قريبًا؟

ابتسمت أنا الآخر وأنا أتأمل الكارت وقلت له:

t.me/qurssan

ـ نعم، بالتأكيد.

احتضنني جدُّو ثم التقط حقيبته الجلدية ومضى.

كانت الساعة قد انقضت، وعليَّ أن أعود لمقابلة مجدي بيه. أخذت أفكر وأنا جالس في مصادفة لقاء جدُّو، ثم تذكرت صورتي المتوارية، فعادت إليَّ همومي، وقررت أن أنهض لأغادر المكان، وأن ألقي نظرة فاحصة في طريقي على المرآة لمعرفة إلى أي مدى وصل شحوب صورتي. ارتديت الجاكيت وحملت الحقيبة، وكنت لا أزال أحمل كارت جدُّو في يدي، فتطلعت إليه مرة أخرى لوهلة، ثم تركته على الطاولة وذهبت.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

أمير الظلام

كان محمود يبحث عن مخرج آمن بينما كنتُ أنا أفكر في الرغبة. رفع صوته وهو يقول في الهاتف إن الاعتصام يذبل يومًا بعد يوم، وإننا إذا تركنا أهالي الشهداء وحدهم فإنهم سيواجهون مصيرهم المحتوم. وسكت لحظة، ثم قال متحسرًا:

ـ لا أحد كان يقف على المدخل عندما مررنا اليوم من طلعت حرب.

وأنا تابعت محاولاتي المضنية لفتح مسار جديد، إذ كانت الانسدادة أكثر عنادًا مما عهدت، تقطع الطريق أمام كل التيارات التي أسعى جاهدًا لتمريرها، مهما بلغت قوتها. كل حركة أقوم بها ترتد إليَّ أو تضيع هباءً. فبقيتُ ساكنًا وسط كل ما كُنته، أتطلع إلى كل ما سأكونه. تمرُّ عليَّ الكلمات وأنا على هذا البرزخ،

t.me/qurssan

راكدةً لا تمازجها صرخات، والأفكار فقيرة لا تخالطها هذيانات، ولم يبقَ أمامي سوى الانتظار حتى تجود عليَّ المدينة بتيار لم أكن أعرف بوجوده، يندفع فجأة من جملة عابرة يلقيها أحدهم، أو من اختلال لحظي للكرة المتزنة فوق قرن الثور. ثم يزيد عرامة فيدور رأسي معه، وتسلكني الرغبة في معارجها، فأرى نفسي أسيرُ فوق كوبري قصر النيل وقد امتد إلى ما لا نهاية، أسير فوق الكوبري قادمًا من أقصى المدينة كشبح وسط مظاهرة صغيرة، لا أعرف فيها أحدًا ولا يعرفني فيها أحد، أسير معهم صامتًا وهم يهتفون. يسري إليَّ دفء أجسادهم، ويأخذني إيقاع حركتهم حتى أنتشي، فأضاجع الطبقة الوسطى بكامل تناقضاتها فوق الجسر. انتبهتُ إلى صوت محمود وهو يقول إن ما حدث في العباسية قبل يومين جعل من المستحيل تعليق الاعتصام الآن، وإن علينا الاستمرار فيه مهما حدث.

نظر إليَّ محمود بعد أن أغلق هاتفه سائلًا من دون أن يتوقع إجابة:

ـ تُرى ما الذي أخَّرها حتى الآن؟

t.me/qurssan

وتطلعنا إلى المارين في الخارج. تابع محمود هز ساقه بعصبية ثم ضغط على أزرار هاتفه ليجري مكالمة أخرى، وتركني أراوح مكاني، لا تكاد تيارات رغبتي الهائجة تدفعني للالتحام بجسد ما، حتى تصطدم بالانسدادة فتخبو مرة أخرى ويهدأ الصخب. قال محمود لمحدثه إنه يجب الحديث مع أهالي الشهداء، وإذا اقتنعوا بتعليق الاعتصام فيجب أن نساندهم جميعًا. ثم سكت قليلًا ليستمع إلى محدثه، وقال بعد حين منفعلًا:

ـ ماذا ستفعل إذا نزلت؟ المرور على الميدان ساعة أو ساعتين من أجل التسلية سيزيد إحساسك بالإحباط، ابقَ مكانك أفضل.

ثم تنهد وتابع:

ـ يجب أن نجد مخرجًا لما يحدث الآن، رأيي أن نعلق الاعتصام سريعًا، كان يجب أن نفعل ذلك بعد أسبوع أو عشرة أيام من بدايته.

الجسد خارطة من التيارات والانسدادات، والرغبة هي ما يدفع تلك الخارطة خارج حدودها، فكل جسد هو رغبة تتوق إلى تجاوز نفسها. كانت الرغبة التي اجتاحتني في أن أكون جزءًا من حلم صديقي هي ما دفعني لأنزل مع

t.me/qurssan

محمود إلى المظاهرات، وأُضرم معه النيران في غرفة أمن الجامعة يوم اشتعلت الأقسام. والرغبة في أن أكون جزءًا من رغبة إيناس هي ما جعلني أذهب لكي أنام معها بينما الحرائق مشتعلة في إمبابة.

تململ محمود في جلسته، ثم أخذ ينظر حوله وهو ممسك بفنجان قهوته وقال يائسًا إنه لم يعد يفهم أي شيء. وبقينا لفترة ننظر معًا من النافذة. أحد الحوائط المواجهة كان يحمل ملصقًا صغيرًا عليه صورة أربعة شباب وفتاة ذات شعر مجعد، بهتت ملامحهم بفعل الشمس اللافحة وضاعت حروف الكلمات المطبوعة على الملصق، باستثناء كلمة «جناين». وأخذت حركة المارة خارج المقهى الزجاجي في التراجع بسبب حرارة الظهيرة، ولمعت حبات العرق فوق جباه العابرين القليلين، حتى وصلت إيناس أخيرًا، وفور دخولها قالت إن الثورة قد «فكست»، وإننا نحتاج إلى ثورة أخرى، ثم جلست بجانب محمود ووجهها مكفهر من الحرارة. محمود ضم راحتيها بين يديه وقال إنه شعر بالقلق عليها، وهي قالت:

ـ هل رأيتم الميدان؟

t.me/qurssan

أجابها محمود أننا قادمون للتو من هناك. فأخرجت قناعين واقيين من الغاز ووزعتهما علينا لأن هناك أخبارًا مؤكدة أن الأمن المركزي سيهاجم الميدان الليلة مصحوبًا بالشرطة العسكرية، لكي يفض الاعتصام منتهزًا فرصة قلة الأعداد. سألها محمود:

ـ وماذا سنفعل الآن؟

فأجابت على الفور:

ـ أنا سأفعل كما فعلت كل ليلة منذ ٨ يوليو، سأبيت في الميدان، وأنتما؟

محمود لم يُجب وأنا أخذت أقلب القناع الواقي من الغاز بين يديَّ، كان أسود اللون بخطم أصفر، بدا كتميمة حداثية تحمي من يحملها، ثم وضعته أمامي على الطاولة. تدفقت إيناس في حديثها، وتكلمت عن الثورة البلشفية التي قامت في فبراير فلم تنجح فتأججت ثانيةً في أكتوبر، وعن فبراير ومارس ٥٤، وعن اللحظة الثورية وتبعاتها. تأملها محمود قليلًا ثم قال لها إن الاعتصام أصبح يثير حيرته وإنه لم يعد يفهم شيئًا. بدا على إيناس أنها كانت تتوقع جملته، فقالت بصبر إننا جميعًا نشعر بالحيرة هذه الأيام، لكن آراءنا ليست لها أهمية الآن، وعلينا أن نكون موجودين في الميدان بجانب أهالي الشهداء بصرف النظر

t.me/qurssan

عن آرائنا. ثم نظرت إليَّ وقالت إن هذا ليس وقت كتابة القصائد، بل وقت كتابة التاريخ.

الرغبة خطرة، تلقي بي دومًا إلى التهلكة وتدفعني لأن أخرج عن ذاتي وأصبح جزءًا من شيء آخر، فنصبح معًا جسدًا مشوهًا. والرغبة مُسكِرة، فبمجرد أن أخرج عن ذاتي وأتخطى حاجزها حتى يختفي الخطر، وتتحقق المعرفة، وأُصبح خفيفًا. في ليلة أخرى كانت إيناس تدير الأزمة من خلال هاتفها المحمول، بعد أن احترقت كنيسة إمبابة، تتلقى المعلومات لتعيد بثها، تنسق جهود الذاهبين والعائدين. ثم وضعت الهاتف على الطاولة بجانبها وتنهدَت في يأس فلمستُ يدها لأخفف عنها. في كل الليالي التي كان طريقي فيها يتقاطع مع طريق إيناس في بار أو مقهى منذ أن قامت الثورة، كان هناك دائمًا جسد بارد ممدد على طاولتها، أطرافه ممزقة على شكل آراء ونظريات وتحليلات وضروب من الحدس يتداولها الجالسون لكي يستشرفوا اللحظة الآتية. عندما كنت أدخل بالصدفة وأتطلع إلى طاولتها كنت أسلِّم ثم أبتعد، لكني بقيت هذه الليلة بجانبها. دار الحديث حول الثورة المضادة والفلول والجيش، ثم نظرتْ إليَّ إيناس

t.me/qurssan

كأنها وعت وجودي في هذه اللحظة فقط. علَّقتْ عينيها للحظات من دون أن تحركهما. وأنا نظرتُ إلى عينيها المرهقتين. بقينا صامتين برهة قصيرة، لكنها كانت كافية لأن أُدرك خلالها أن إيناس التي أعرفها قد اختفت، وأن إيناس أخرى تنظر إليَّ الآن، فأخذت أتذكر متى كانت المرة الأخيرة التي نظرتُ فيها إلى عينَي إيناس. ولمَّا انفض معظم الجالسين وأوشك المكان على غلق أبوابه سألتها:

ـ هل أوصلكِ؟

فقالت بسرعة:

ـ نذهب إلى بيت عمتي.

كنت طائرًا من السعادة وأنا أجري وراء جسد إيناس وهو يتفتح ويخرج من طور ليدخل آخر في تلك الليلة. كان وِركاها المكتنزان يشعان بهاءً وجمالًا، وعلى حواشي المنطقة الرطبة بين ساقيها تغفو الدرجة الأشد دكنة للون جلدها، دكنة تقع بين الرمادي الغامق والبني المحروق، تلمع بفعل طبقة من العسل الشفاف أخذت تكسوها، ثم تنطفئ عندما تزداد هذه الطبقة كثافةً وتصبح حليبية اللون. كانت رغبتها غامضة تندفع وراء شيء لم أعرفه، شيء يخصها ولا تريد أن تُشركني فيه، أما رغبتي فكانت مستثارة من تواطؤنا الذي لم نكن نعلم بوجوده. تواطؤ على خيانة

t.me/qurssan

الحدث الذي لم ننفك ندور في فلكه منذ شهور. في تلك الليلة بعد أن تطارحنا الغرام في بيت عمتها، وبعد أن خان جسدانا كل شيء، قلتُ لإيناس مبتهجًا:

ـ تحيا الثورة.

تحدث محمود عن التعديلات الوزارية الأخيرة وقرارات تسريع المحاكمات وتساءل عن جديتها، فأجابته إيناس بأنها لا تكفي وأنها مجرد أقوال. تمتم محمود:

ـ صحيح.

كانت عيناه تطوفان حائرتين في المكان، ينظر هنا وهناك ثم يتطلع إلى إيناس تارة وإليَّ تارة. قال محمود:

ـ وما مطالبنا الآن؟

فأجابته إيناس بأن مطالبنا واضحة ولم تتغير منذ أول يوم في الثورة. فقال محمود:

ـ لكن هذه هي المشكلة، يجب أن تكون لنا مطالب محددة بمراحل، نستخدم فيها الاعتصام أداة للضغط حتى تتحقق. لا يمكن أن نبقى في حالة اعتصام مستمرة.

قالت إيناس:

t.me/qurssan

ـ بل يجب أن نبقى في الشارع إلى أن تتحقق كل المطالب الرئيسية، هل نسيت أن خطأنا الكبير بعد التنحي هو ترك الميدان؟

إيناس من ناحيتها لم تترك الشارع منذ أن خرجت إليه، وكثيرًا ما كنت ألقاها صدفة في شوارع وسط المدينة، أو أجدها ساهرة مع بعض أصدقائها وصديقاتها. عندما كنت أراها في تلك المرات، منهمكةً في حوارات لا تنتهي وسط دخان السجائر، كنت أتذكرها كما عرفتها في الجامعة. لم تكن إيناس آنذاك تحب الكلام، وإنما تفضل الاستماع صامتة. وقتها كان الجميع مُنخرطًا في رحلة من التحولات خلال أعوام دراسته، لتستقر حياته بعدها على ضفة ما قبل خروجه من الجامعة، أما إيناس فلم يبدُ عليها يومًا اهتمام برحلة البحث عن الذات تلك. آخر مرة رأيتها في الجامعة كانت قبيل تخرجنا، يومها جلسنا جماعة على سلم القسم نثرثر عن الامتحانات القادمة ونتائجها المتوقعة، ثم غادر الجميع تباعًا وبقينا نحن الثلاثة جالسين. أطرقت إيناس كعادتها عندما تجلس معنا، بعد فترة من الصمت تحدثنا أنا ومحمود حول فيلم «تارنتينو» الأخير الذي شاهدناه في اليوم السابق. سألها محمود عن رأيها في الفيلم، فقالت:

ـ لا أدري، أعتقد أنه جيد.

t.me/qurssan

كانت تلك الإجابة التقليدية لإيناس عندما تُسأل عن رأيها في أمر ما. عندما كنا نُسمعها القصائد التي نكتبها أنا ومحمود كانت تسمع في صمت، ولا تعلق بعدها حتى يسألها أحدنا عن رأيها، فتقول جملتها التقليدية: «لا أدري، أعتقد أنها جيدة».

لكنها في تلك الظهيرة فكرت قليلًا ثم أضافت، ونحن جالسين على سلالم الجامعة:

ـ لقد اكتشفت أنني لا أستطيع تكوين رأي حول أي شيء أشاهده أو أقرأه، بل لا أستطيع تكوين رأي حول أي شيء. لا أستطيع أن أقطع بأن أمرًا ما جيد أو سيئ، كلما كدت أميل إلى جانب وجدت أن حُجج الجانب الآخر لا تقل إقناعًا.

عمل الانسدادة لا يتلخص في سد طريق تيارات الرغبة فقط، فهي قد تسمح في بعض الأحيان بمرور التيارات لكنها تجعل من التحول الذي تقوده الرغبة تحولًا زائفًا، وذلك هو الوجه الأكثر إحباطًا ومراوغة. كم من أجساد خاطئة فقدتُ نفسي داخلها مؤخرًا، فالمدينة أصبحت تعج بالتجمعات والحركات والأفكار والنظريات الكثيرة هذه الأيام، وكلها تشد عصبًا فيك، تصله بأطرافها، فيتشكل

t.me/qurssan

جسد جديد، ويسري فيه دم غريب. لكنك بعد أن تترك نفسك لها، تجدك تعود حسيرًا إلى ذاتك القديمة بعد أن ظننت أنك ستصبح شيئًا آخر. أجساد باردة لا تنبض فيها الرغبة. تطلع محمود لإيناس وقال لها فجأة:

ـ هل لاحظتِ أنك تحدثتِ منذ قليل عن الثورة البلشفية؟

فأجابته بلامبالاة:

ـ وماذا في ذلك؟

فقال محمود:

ـ أنتِ لم تهتمي بالسياسة في حياتك قَطُّ وتتحدثين الآن كأنكِ ماركسية قديمة.

وضحك. تبددت كآبة اللحظة لوهلة عندما ضحكت إيناس هي الأخرى وقالت:

ـ السياسة يا عزيزي أيبك هي التي جاءت إليَّ ولست أنا التي ذهبت إليها.

فأجابها محمود الذي راق مزاجه الآن:

ـ وهذه هي المشكلة، فالخطر الأكبر على الثورة هم الهواة أمثالكِ.

وضحكا مرة أخرى. كانت ضحكاتهما تخلق حيزًا داخليًّا،

t.me/qurssan

يجعل الطاولات الأخرى في المقهى تتبخر، ومعها المارة، والكآبة المخيمة، ولا يبقى سوى مكان خاص بالعاشقَين لا يراه أحد، يصبح لوهلة غرفة معيشة في بيت مفتقد، أو مقعدًا لشخصين في حديقة. قالت إيناس:

ـ السياسة ليست تخصصًا، ومعظم من قاموا بالثورة لم يكونوا يفهمون شيئًا في السياسة. أما الخطر الأكبر على الثورة فهو أمثالكم الذين لا يزالون يعيشون في بروجهم العاجية، صحِّ النوم!

محمود قال لها إنه ينزل كل يوم إلى الشارع رغم أنه لا يفهم في السياسة ولا يريد أن يفهم فيها، ثم نظر فجأة وأشار إليَّ سائلًا إيناس:

ـ ثم أريد أن أفهم لماذا أصبحتِ لا تطيقينه هذه الأيام؟

الحب قصة يسردها الرواة، والرغبة قصيدة يتلعثم بها الشعراء. الحب سيرة الآمنين والباحثين عن مكان، أما المشردون أمثالي فسيرتهم الرغبة الآثمة. لا تثيرهم التوافقات والتناغمات التي يغزلها الحب، وإنما تخطفهم التشوهات والتنافرات التي تبعثها الرغبة. قال محمود:

ـ لقد وصلنا إذن إلى حارة سد.

t.me/qurssan

وقالت إيناس:

ـ نحن دائمًا نصل إلى حارة سد. كيف يمكننا أن نصل إلى نقطة جديدة من دون أن نمر بحارة سد؟

وأنا فكرتُ أن لا ذات لي وإنما سلسلة من الانحرافات التي تنشأ عن الارتباط بأجساد غريبة مشوهة. مع كل جسد تحدث انحرافة جديدة. وفكرتُ أن محمود وإيناس يحبان الثورة، وأنا لا أستطيع ذلك. أنا لا أستطيع أن أحب، وإنما أستطيع أن أرغب فقط. كل من حولي ينضح كلامهم حبًّا في الثورة، قصص حب لا تنتهي في عشقها وافتقادها والتحسر عليها. وأنا يصيبني الغثيان وأنا أرى وراء كل حب رغبة تقبع مستكينة. الرغبة لا تريد أن تبقى واحدة، وإنما تريد أن تتكاثر وتتعدد. أن تتناثر ألسنة لهبها لتشعل رغبات جديدة وتدخل أرواحًا جديدة.

انقطعت صلتي تدريجيًّا بما يحدث، ولم أعد أنزل إلى الشارع كثيرًا، فلم يعد هناك ما يخصني وفضلت أن أبقى بعيدًا. ما يخصني هو الرغبة. الرغبة هي ما اكتشفته في الشوارع ولا شيء آخر. وفي تلك الليالي المضطربة التي كنت ألتقي فيها إيناس صدفة، كانت تدعوني للمشاركة في الفاعليات التي تنظمها هي وأصدقاؤها، فأكرر عليها

t.me/qurssan

عزوفي عن أي شيء لا ترشدني إليه رغبتي. عندها كانت إيناس تسألني:

ـ لماذا إذن نزلت إلى الشارع؟

فأقول لها إنني نزلت بسبب صديقي الوحيد محمود. الثورة عندما اندلعت كانت هي القصيدة التي يكتبها محمود بعد أن هجر الشعر. محمود الذي لم يكتب سطرًا واحدًا منذ أن تخرجنا في الجامعة قبل عامين، اصطحبني إلى مسجد عمرو بن العاص وهو يقول لي إن شيئًا سيحدث اليوم، ثم سار بي مع السائرين إلى شارع القصر العيني وسط الدخان وموجات الرعب التي لا تنتهي. في قلب هذا الجنون وقف محمود يصرخ فيَّ كأنه نبي عبراني:

ـ إنهم يتهاوون! إنهم يتساقطون!

جاهدتُ ألا يغيب عن عيني ونحن نجري وسط أكوام الأجساد الملقاة على الأسفلت والحطام الذي لا يزال الدخان ينبعث منه. كنت قلقًا لأني كنت متأكدًا أنه إذا أُصيب فسينتهي كل شيء، سيتوقف كل ما حولنا وتنتهي القصيدة ليضربنا الواقع من جديد. وفجأة اختفى محمود من أمامي ووجدت نفسي وسط جماعة صغيرة، كانوا خمسة، أو ربما سبعة. أحدهم كان صبيًّا يرتدي فانلة حمالات، وآخر كان شيخًا نحيفًا يرتدي جلبابًا أبيض،

t.me/qurssan

أما الباقون فغابت ملامحهم. كانت المعركة تتحرك عبر أجسادنا، أحجارها تنتقل من عضلة إلى عضلة، رعبها من عصب إلى عصب. وأدركت أننا نقترب من ذروة لا رجعة فيها، وفي لحظة عابرة اكتسحني يقين نادر بأن كل ما حولي هو جنس. جسدي لم يعد سوى ذرة رغبة في عاصفة جنس عاتية. نقل الأحجار جنس، حمل الجرحى جنس، الصراخ في الآخرين جنس، الجري جنس، الألم جنس، الاختناق جنس، البكاء جنس، الإمساك بأعضاء الآخرين الممزقة جنس. حتى اجتاحتنا جميعًا الذروة، ففقدت قدرتي على الاحتمال وسقطت مقطوع النفَس. لا أدري كم من الوقت مضى بعد ذلك، ولا كيف وصلت إلى مشارف ميدان التحرير، لكني عندما فتحت عينيَّ ونهضت متحاملًا على نفسي ودخلت الميدان، رأيت محمود جالسًا على طرف الحديقة الدائرية عاري الصدر وقد تعصب بقميصه، كانت عيناه متحجرتين وانطبعت آثار الدماء على وجهه. جلست جواره وتبادلنا السجائر. راح محمود يهذي، وتطلعت حولي أبحث عبثًا عن آثار ذلك الجسد الذي كنت جزءًا منه منذ قليل. بقينا طويلًا جالسين، حتى التفت إليَّ محمود وقال أول جملة استطعت فهمها منذ أن جلسنا:

t.me/qurssan

ـ لن نعود أبدًا إلى بيوتنا بعد اليوم.

وأقول لإيناس:

ـ كم كانت جميلة تلك القصيدة.

فتقول لي:

ـ أنت ببساطة أسير رغباتك.

اقترب الليل، وبدأت المدينة تستقبل وردية جديدة. فمرت نسمة خفيفة، وطلب النادل الحساب لانتهاء عمله، وسار في الشوارع مارُّون يحملون مظاريف مستطيلة عليها أسماء معامل تحليل، وعلت أصوات محركات سيارات مسرعة يقودها شباب متأنقون. خرجنا إلى الشارع وكان الملصق الباهت لا يزال في مكانه. وعندما انحرفنا لندخل شارع طلعت حرب، قابلتنا مظاهرة صغيرة قادمة من الميدان تسير في نهر الشارع. كان المتظاهرون يحملون لافتات وأعلامًا صغيرة، ويهتفون بأصوات هادئة. عثرت إيناس على مجموعة من أصدقائها وسط المتظاهرين فذهبَت إليهم وتبعها محمود، بينما وقفت أنا على الرصيف أنظر إليهما. التفتت إيناس ومحمود إليَّ ولوحا بأيديهما، ثم رأيتُ إيناس تبتسم وتضع يديها باطمئنان في جيوبها

t.me/qurssan

ومحمود ينظر سعيدًا إلى إيناس. لوحت لهما مودعًا وذهبت لأشتري سجائر من بائع بالقرب من ميدان باب اللوق. سألني البائع إذا ما كان «العَجْن» ما زال مستمرًّا في ميدان التحرير. تطلعت إليه، فمضى يقول إنه سمع أن هناك اشتباكات في الميدان. أعطيته النقود ووقفت في انتظار الباقي. عاد البائع بالنقود وقال كأنه يتحدث إلى نفسه:

ـ هل تصدق أنني لم أذهب إلى ميدان التحرير منذ قيام الثورة حتى الآن رغم أنني أعمل على بعد خطوتين منه؟

نظرت إلى البائع قليلًا ثم أخذت النقود وهممت أن أسير، لكني توقفت والتفتُّ صوبه ثم أعطيته القناع الواقي الأسود الذي كان لا يزال في يدي. أمسك البائع بالقناع وأخذ يتفحصه ثم نظر إليَّ. فقلت له:

ـ قد يأتي يوم ترغب فيه في الذهاب إلى هناك، فإذا شعرت بالخوف أمسِك بهذا القناع وسيكون كل شيء على ما يرام.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

أمل أعمى

تأخر الربيع كثيرًا هذا العام. وعندما حلَّ أخيرًا تدفقت الحياة في عروق النباتات، فنمَت الأوراق بين يوم وليلة، وتفتحت البراعم على عَجل. أزهارُ شجرة الكرز أغرقت الحديقة الخلفية بلونها الزهري، وتكاثرت الأوراق الزاهية على أغصان شجرة الجوز المجاورة. لم تعد هذه هي الحديقة نفسها، فقد استيقظ فيها كل شيء فجأة. وانطلقت الحشرات الصغيرة تتجول بين الزهور البازغة حديثًا، وملأت المكان شقشقات القُبَّرات الصغيرة والعقاعق الكبيرة. ضوء الشمس الساطع الذي تسبح فيه الحديقة كان دافئًا، لكن الهواء الذي يمر بين أوراق الشجرتين كان لا يزال باردًا، كأنه يتسلل من نافذة صغيرة نسيها أحدهم مفتوحة في أرض الشتاء التي باتت بعيدة، وما إن تمر سحابة في السماء وتحجب الشمس، حتى تتجدد ذكرى تلك الأرض المهجورة وبرودتها القاسية.

t.me/qurssan

الهواء البارد يمرُّ فيقلِّب أوراق شجرة الجوز، ويهز زهور شجرة الكرز. والنور الباهر يطلُّ من النافذة الزجاجية ويلقي بأشعته الساطعة على طاولة المطبخ الصغيرة، والكرسيين المحيطين بها، فيفصل الأشياء بدقة عن ظلالها، بعد أن ظلَّ ضوء الشتاء الرمادي يدمجهما معًا.

قالت نور:

ـ ماما، على أي عمق يجب أن أضع البذرة؟

كانت تقف بجوار النافذة وتمسك بأصيص زرع صغير مملوء بالتربة. أجابتها مروة:

ـ يمكنك أن تضعي البذرة على عمق إصبع كامل لأن أصابعك صغيرة.

غرزت نور إصبعها في سطح التربة التي أحضرتها من الحديقة الخلفية، ثم أخرجته ووضعت حفنة من بذور الريحان في راحة يدها، وأخذت تنظر إليها مترددة. ثم سألت:

ـ كم بذرة أضع؟

فردَّت أمها:

ـ ضعي أكثر من بذرة، في أكثر من حفرة.

t.me/qurssan

انشغلت مروة بتنظيف طاولة الطعام في المطبخ، وحملت صحنَي الإفطار إلى المَجْلى. لكن نور بقيت في مكانها ممسكةً ببذور الريحان في يدها وهي حائرة، ثم قالت:

ـ لكن الدنيا معتمة على هذا العمق يا ماما.

أجابتها مروة:

ـ البذرة تحب أن يلفها الظلام التام قبل أن تبدأ في النمو، وإذا وضعناها تحت السطح مباشرةً لن تستطيع جذورها أن تكون راسخة في التربة.

لم يبدُ على نور الاقتناع، لكنها وضعت في كل حفرة من التي حفرتها بإصبعها في الأرض ثلاث بذرات، ثم أهالت عليها التراب. فتحت مروة درج طاولة المطبخ، وفحصت محتوياته على عَجل ثم أغلقته. بعدها تطلعت إلى نور التي كانت مشغولة بحبات التراب التي تجمعت تحت أظافرها، وقالت لها:

ـ والآن هيا بنا لأننا تأخرنا على المدرسة، وارتدي معطفك لأن الجو لا يزال باردًا.

الكلمة قشرة داكنة نمت فوق جرح. لا تحمل
معها معناها فحسب، بل تحمل معها أيضًا

t.me/qurssan

الخدوش التي أصابت ذلك المعنى. فكل كارثة تترك آثارها على اللغة، حتى وإن لم تُرَ بالعين المجردة. وأين يمكن رؤية تلك الندوب؟ في المعاجم. المعاجم التجريبية التي يبحث عنها مشروع «معجم الندوب» هي معاجم لا تبحث في جذور الكلمات أو أصلها «الإتيمولوجي» كما تفعل المعاجم القياسية، وإنما تبحث عن الندوب التي خلَّفتها الكوارث السياسية والاجتماعية فوق الكلمات. لم تعد كلمة «شجرة» تشير إلى صورة الشجرة الضاربة بجذورها في الأرض، وإنما تحمل الكلمة داخلها شجرةً أخرى لم تعد تقف في مكانها، شجرة اقتُلعت من أرضها. داخل كل مفتاح يكمن مفتاح آخر معطَّل، مفتاح مدفون في الأرض ينتظر أصحابه لكي يعودوا إلى بيت لم يعد موجودًا. كلمة «البيت» لم تعد تعني مكان السكن فقط، وإنما تعني أيضًا بيتًا مفقودًا. المعجم كما نفهمه ليس متحفًا للغة، بل يصلح لكي يكون شكلًا من أشكال كتابة التاريخ.

أشياء صغيرة يمكنها أن تجعل مروة تشعر بأنها محظوظة

t.me/qurssan

للغاية، مثل أن تجلس في الاستديو الذي تتقاسمه مع صديقتها سارة وتسمع عبر الحوائط الأصوات المتسربة من غرف بروفات الموسيقيين الموجودة في الطابق الأعلى، وتراقب في الوقت نفسه اهتزاز ذيل السمكة الخشبية الموجودة على طاولة سارة. لا أحد من الموسيقيين يستطيع أن يرى تأثير نغماته في الغرفة، ولا تستطيع السمكة أن تسمع صوت الجيتارات الخافتة التي تهتز على وقعها. وحدها مروة هي من بإمكانه أن يسمع ويرى عالمين منفصلين في الوقت نفسه، وعندما تدرك ذلك، تشعر بأنها محظوظة للغاية. ثم دق جرس مكالمة «السكايب» التي تنتظرها. كانت سارة على الطرف الآخر تتحدث إليها من بيروت، فقد سافرت قبل ثلاثة أيام لتجهز لمعرضها الأول هناك. كانت سارة في مزاج جيد، بعد فترة من التوتر الشديد سبقت السفر. وراحت تتحدث بصوت منفعل عن أيامها الأولى في المدينة، وتحكي لصديقتها كيف أنها تقضي وقتًا طيبًا رغم أن التجهيزات تسير ببطء شديد. بعدها روت مروة لصديقتها أنها كتبت مقدمة طلب تقديم المشروع، لكنها غير متأكدة من جودتها. فقالت سارة:

ـ أرسليها لي ونقرأها الآن معًا.

t.me/qurssan

أرسلت مروة الملف، وفيما هي تفعل قالت فجأة:

ـ سارة، ما كان لي أن أعبر الأشهر الماضية من دون مساعدتك. شكرًا.

فقالت سارة:

ـ لا تقولي هذا يا حبيبتي، أنا لم أفعل شيئًا.

سكتت لوهلة ثم أكملت:

ـ اسمعي، كل شيء يسير جيدًا. تعرفت أمس إلى صاحب دار نشر صغيرة، ورويتُ له عن مشروعنا، فأبدى تحمسه لنشر المعجم، واقترح نشر المعاجم التي سننجزها منفردة أولًا، قبل نشرها مجتمعة في كتاب واحد تحت اسم «معجم الندوب» كما كنا نخطط.

أطلَّ سامي من نافذته في الطابق الأول، ناظرًا إلى الحديقة الخلفية، وهو يرتشف ثمالة كوب القهوة. ثم ترك الكوب بعد الفراغ منه على حافة النافذة، وحمل مفتاح السيارة الموضوع جوار الباب، ونزل من شقته. في بهو البيت التقى مروة، التي كانت تقف أمام صندوق بريدها الخاص، وتمسك بمظروف رسالة وقد قطبت جبينها. حياها سامي، ثم سألها وهو يتطلع إلى الرسالة التي بين يديها:

t.me/qurssan

ـ هل وصلتك أنتِ أيضًا رسائل من الشركة الجديدة؟

فأجابته مروة:

ـ هذه رسالة من شركة عقارات لا أعرفها اسمها «إيمو جروب».

وأرته مظروف الرسالة. فقال سامي:

ـ إنها بالفعل شركة العقارات الجديدة التي اشترت البيت.

وأردف:

ـ الشركة الدانماركية التي سبق أن اشترت البيت باعته الآن لشركة عقارات إسرائيلية.

فأظهرت مروة دهشتها قائلةً:

ـ حقًّا؟

وعلَّق سامي مبتسمًا:

ـ يبدو أن الإسرائيليين وراءنا في كل مكان.

فضحكت مروة. الرسالة الأولى التي تلقاها سامي من الشركة الجديدة استأنفت المفاوضات التي بدأتها الشركة القديمة معه لكي يرحل عن شقته، وعرضت عليه ١٠ آلاف يورو نظير الرحيل الفوري. سألته مروة:

t.me/qurssan

ـ وهل تنوي فعلًا ترك الشقة؟

فأجابها قائلًا:

ـ بالطبع لا، أين يمكنني أن أجد شقة معقولة؟ برلين تغيرت كما تعرفين. أنا أريد أن أعرف فقط سقف تعويضاتهم.

نظرت مروة إلى المظروف الذي في يدها بقلق، فقد هددتها الشركة القديمة بإقامة دعوى قضائية ضدها من أجل طردها من البيت، لأنها أجرته مرةً من الباطن من دون إذنٍ. ظلَّ سامي يتطلع إلى مروة ثم قال:

ـ الطابق الثاني خلا من سكانه، وشرعت الشركة في تجديد الشقق ليعيدوا تأجيرها بسعر أعلى. كذلك الطابق الرابع. لم يعد سوانا وأنتم في الثالث و«فراو دوزيدلا» العجوز في الطابق الأرضي.

وقفت نور بجوار أصيص الريحان تنظر إليه بعد أن سقته. لم يكن هناك أي أثر للبذور التي اختفت في باطنه. فقالت:

ـ ماما، متى ستخرج النبتة إلى النور؟

فأجابتها مروة أنها بحاجة إلى المزيد من الوقت، إذ لم تنقضِ سوى بضعة أيام على وضعها في التربة.

t.me/qurssan

كانت مروة تجيب بآلية وهي شاردة تنظر إلى الرسالة التي في يدها. وبعد قليل سألت نور وعيناها لا تزالان مُعلَّقتين على الأصيص:

ـ ماما، كيف يمكن للقمر أن يحرك البحار؟

انتبهت مروة وأزاحت الرسالة قليلًا عن عينيها ونظرت إليها. فروت نور أن أحد التلاميذ سأل اليوم المعلمة عن فائدة القمر، فأخبرتهم أن القمر ينير لنا السماء كما أنه يحرك البحار، لكنها قالت إنها ستخبرهم المزيد عندما يكبرون. فكرت مروة قليلًا وقالت:

ـ ربما هي تقصد حركتَي المد والجزر.

فالتفتت إليها نور ورددت بدهشة الكلمتين، فشرحت مروة أن مياه البحار تتقدم أحيانًا إلى الشاطئ، وتتراجع أحيانًا أخرى، وأن تلك الدورة مرتبطة بحركة القمر. وعندما لمعت عينا نور ونظرت مستفهمة، احتارت مروة قليلًا ثم قالت:

ـ أعتقد أن الأمر له علاقة بالجاذبية. ولا تسأليني عن الجاذبية الآن لأنني مشغولة.

فردَّت نور:

ـ أنا أعرف ما الجاذبية.

t.me/qurssan

فيما عادت مروة تنظر إلى الرسالة التي في يدها. ظلَّت نور متسمرة بجوار النافذة، ثم قالت:

ـ ماما؟

زفرت مروة بضجر وأجابت:

ـ نعم.

فسألت نور:

ـ هل يستطيع القمر أن يحرك الريحان في الأصيص فيجعل نبتته تخرج إلى السطح؟

فأزاحت مروة الرسالة بانفعال، وقالت:

ـ نور، اذهبي إلى غرفتكِ الآن حتى أفرغ مما في يدي.

تسيل الفضة الخالصة كاسيةً سطح الكوكب المنير. تزحف شيئًا فشيئًا على التضاريس القليلة فيتشكل أرخبيل من الجُزر الصغيرة المعتمة التي لم يستطِع السائل الوصول إليها. لا تعرف الفضة سوى التمدد أو الانكماش، فهي لا تتكثف أو تتبخر، إذا وجدت مكانًا تمددت فيه، وإذا لم تجد انكمشت، من دون أن

t.me/qurssan

تزيد أو تنقص. هذا السطح المنير في السماء هو ميزان الكون، فالفضة السائلة التي تترقرق فيه لها من الرهافة والنقاء ما يجعلها مرتبطة بكل ما يسيل ويجري في هذا الكون. إذا اهتز سطحها اهتزازة بسيطة اهتز لها على الفور سطح سائل آخر. عبر آلاف الأميال، تستجيب لأقل ميل في حركة الفضة الأنهارُ في جوف الأرض، والدماءُ في عروق البشر، والنُّسْغُ في سيقان الأشجار. وبالمثل، كل ما يسيل في الكون يرتبط ارتباطًا لا ينفك ببِركة الفضة السائلة، فإذا تعرض مساره للانسداد أو إذا تجلط فجأة وتوقف عن السيلان، يهتز شيء على سطح الفضة، ويتجعد السطح قليلًا.

سيارة سامي هي سيارة نقل صغيرة لونها أحمر، بها مكان لراكب واحد فقط بجوار السائق. بعد أن أوصل سامي ابنه إلى المدرسة اتجه إلى موعده لكي ينقل أمتعة أسرة تقوم بالعزال، لكن صاحب الأمتعة اتصل به وهو في الطريق وألغى الموعد بسبب مرضه المفاجئ. أغلق سامي الخط وغرق في التفكير، فقد كان يعول كثيرًا على هذه النقلة بعد أيام طويلة من الانتظار. وقف يفكر

t.me/qurssan

قليلًا ثم طلب أحد معارفه، وهو صاحب محل للأثاث المستعمل، لعله يحتاج إلى من يقوم بنقل بعض القطع إلى محله، لكنه لم يَرُد. دار سامي بالسيارة دورتين في حي نويكولن على غير هدى، ثم ذهب إلى محطة بنزين وغسل السيارة. دعَك سطحها المعدني جيدًا من الخارج بالصابون السائل، ونظف داخلها بمكبس الهواء المضغوط، بعدها ركنها ونزل يضبط هواء الإطارات بنفسه. تطلع في تلفونه المحمول ثم أعاده في جيبه. لم يعد هناك ما يفعله في السيارة، فقادها مرة أخرى في شوارع نويكولن، ثم انتقل إلى حي تربتو، حيث محل الأثاث المستعمل، على أمل أن يلتقي صاحبه، لكنه وجده مغلقًا. فاشترى قهوة وزجاجة مياه صغيرة من كشك مجاور، ثم انطلق إلى حديقة تربتو الشاسعة، حيث ركن السيارة في الموقف الخاص بالحديقة. كان موقف السيارات خاليًا في هذا الوقت من اليوم. نظر مرة أخرى في تلفونه، ثم ألقاه على الكرسي المجاور، وبقي في مكانه في السيارة.

ـ ماما، ماذا يعني المد والجزر بالعربية؟

ـ لا أعرف، سأبحث في المعجم.

t.me/qurssan

ـ ماما، لماذا لا تحتاجين إلى معجم للكلمات الألمانية؟

ـ لأن عربيتي ضعيفة يا حبيبتي.

ـ وهل ستكون عربيتي أنا أيضًا ضعيفة؟

ـ إذا أردتِ ستكون عربيتكِ قوية يا حبيبتي. هل تحبين دروس اللغة العربية؟

ـ نعم. لكني لا أحب يزيد.

ـ من هو يزيد؟

ـ يزيد، ألا تعرفين يزيد؟ الولد الذي معي في المدرسة.

فتحت مروة أدراج مكتبها في البيت درجًا درجًا، وأخذت تتفحص محتويات كل درج جيدًا، ثم تغلقه مرة أخرى. قالت نور:

ـ ماما، عن ماذا تبحثين؟

أجابت مروة من دون أن تتوقف عما تفعله:

ـ أبحث عن خاتمي، هل رأيتِه؟

أجابت نور:

ـ أي خاتم؟

t.me/qurssan

فأجابت بعصبية:

ـ خاتم الزواج.

ثم أكملت البحث على أرفف المكتبة وهي تقول:

ـ أكاد أُجن، أين ذهب؟ لقد بحثت عنه في كل مكان.

تابعت نور أمها وهي تزيح الكتب والأوراق من مكانها وتنظر تحتها، ثم قالت:

ـ ماما، لماذا أنتِ حزينة؟

فتوقفت مروة عن البحث ونظرت إلى ابنتها وقالت:

ـ أنا لست حزينة، أنا مشغولة الآن بالبحث عن هذا الخاتم.

سكتت نور قليلًا، ثم قالت بصوت مضطرب:

ـ لا، أنتِ حزينة. اليوم وكل يوم.

فتركت مروة ما في يدها وهرعت إلى نور وهي منزعجة وقالت:

ـ حقًّا؟ كل يوم؟

فانفجرت نور في البكاء وهي تقول:

ـ نعم، كل يوم.

ضمتها مروة إليها بسرعة وهمست في أذنها:

t.me/qurssan

ـ لا تبكي يا حبيبتي. أنا آسفة. أنا فقط مشغولة قليلًا. أنا لست حزينة.

في الأوقات التي يقضيها سامي وحيدًا في سيارته كانت تخطر في رأسه أفكار كثيرة. اليوم جلس في سيارته يفكر في النصيب الذي يصيب مرة ويخطئ مرات. أمنيات سامي من الحياة وهو شاب كانت قليلة، كل أمنية كانت صراعًا غير متكافئ مع النصيب، لكنه نجح إلى حد ما في الوصول إلى بر الأمان، فقد تحققت بعض أمانيه، وتزوج وأصبحت لديه أسرة صغيرة، وولده يكبر أمام عينيه. أما الآن فلم يعد لديه أي أمنيات سوى أن تسير الحياة بهدوء. سحب سامي نفَسًا عميقًا وفكر أنه لا يفهم لماذا يجب على المرء أن يصارع ضربات النصيب والقدر حتى إن لم تعد لديه أمنيات، فهو لم يعد لديه اليوم ما يرغب في تحقيقه أو المطالبة به، أو حتى الصراع من أجله. لم يعد يرغب من الحياة سوى أن تسير بهدوء. أدار سامي محرك سيارته وقادها من شارع إلى شارع. ظل يدور في المدينة حتى دخل الليل، ولم يرغب في العودة إلى البيت. بعد جولة ليلية طويلة ركن سيارته جوار بناية يعرفها جيدًا. لمعت أضواء النيون المبهرة على واجهة الطابق الأرضي،

t.me/qurssan

الذي كثيرًا ما تردد عليه، كتبت مصابيح النيون الرفيعة كلمة «كازينو» باللون الأحمر، بجانبها رزم من الأوراق النقدية، وعجلة روليت تدور بلونيها الأحمر والأسود. جلس سامي ساكنًا في السيارة، وقد انعكست أضواء النيون على نافذة السيارة الأمامية.

لماذا نحن بحاجة إلى معاجم جديدة؟ من أجل تمرير التجارب التي تحملها اللغة من جيل لآخر. نحن نعود دائمًا إلى المعجم وما ذُكر فيه. لكن إلى ماذا نعود عندما نتناول المعجم بين أيدينا؟ هل نعود إلى الأصل؟ هل نرجع إلى صحيح اللغة؟ هل نَحِنُّ إلى الماضي؟ نحن نعود إلى المعجم لأننا على الأغلب وقعنا في أزمة، وأصبحنا بحاجة إلى مساعدة، فالكلمات كما نعرفها لم تعد تعني شيئًا. نحن نقوم بالبحث عن معنى شارد تركه أحدهم ولم نلتفت إليه من قبل، أملًا في أن نعثر على مَخرج من أزمتنا. هذا المعنى الشارد أو البعيد أو حتى المهجور ليس ابتكارًا جادت به قريحة أصحاب المعاجم، وإنما هو خبرة مدفونة في هذه الكلمة أو تلك، أو كما نحب أن نسميه ندبة لم تعد تُرى

t.me/qurssan

بالعين المجردة. وعندما نعود إلى تلك الجراح والندوب فإننا لا نفعل ذلك لأننا نقدس لغة الماضي، وإنما لأننا نبحث عن لغة جديدة. العودة إلى المعجم تشبه عمل المؤرخ الذي تحركه لحظة خطر أو أزمة، فيهرع إلى الماضي لكي يقرأ فيه ما يفيد محاولات النجاة من الخطر المحدق. إنه يصل الصراع الحالي بصراع أقدم. كل معجم جديد هو أمل في لغة جديدة، مُوجَّه نحو المستقبل.

الممر الحجري الصغير يفضي إلى جدار بيت، ثم ينفذ عبره مرتقيًا بضع درجات. من الجدار القصير تظهر نافذة صغيرة، تنمو حولها نبتة متسلقة. قبل الوصول إلى تلك الدرجات تتحول عتمة الممر إلى ضوء مبهر. وفي الجزء المعتم من الممر يميل جانبٌ من جانبيه على الجانب الآخر فيصبح الجداران على شكل كتف. وفي الجزء المنير يستوي الجانب المائل مرة أخرى. كلما تقوَّس بيت في طريق الممر وسار الأخير تحته سادت العتمة. وكلما انكشف الممر تحت السماء سطع الضوء. هناك عند درجات السلم القليلة الغارقة في ضوء النهار، وقف صبي

t.me/qurssan

يلعب، وجلست بنت مع صديقتها. كان ذلك المشهد أكثر ذكريات مروة وضوحًا عن المدينة القديمة في نابلس من زيارتها الوحيدة إليها مع أبيها وهي طفلة صغيرة. لا توجد أحداث في هذا المشهد، فقط عتمة تتحول إلى إضاءة باهرة، وولد وبنتان، وبضع درجات. طفا هذا المشهد على سطح وعيها وهي جالسة في الاستديو تقلِّب في كتبها وأوراقها. ثم فتحت جهازها، وبقيت تتطلع إلى طلب التقديم. لم تكن قلقة من عدم الحصول على منحة المشروع من قسم الدراسات العربية في جامعتها، وإنما كانت قلقة من أن يمنعوها من الدخول. شردت في السيناريوهات المحتملة، وماذا يمكن أن يقول لها ضباط الحدود، وكيف يمكن أن تَرُد عليهم. وظلت في شرودها حتى قطعته مكالمة «سكايب» من سارة، فاستمعت إلى رأي صديقتها في النسخة التي أرسلتها لها من طلب التقديم. وتفاءلت سارة بعد أن روت لها مروة أنها تحدثت مع رئيسة قسم اللغة العربية ورحبت بفكرة تنظيم ورشة عمل في القسم مكملة لورشة بيرزيت التي سينطلق بها المشروع. وقالت إنها أوشكت أن تنتهي من كتابة ميزانية المشروع، وسيلحقان بسهولة بموعد التقديم بعد أسبوع. مرت برهة ثم سألت سارة صديقتها:

t.me/qurssan

ـ هل هناك شيء؟ صوتكِ متغير.

سكتت مروة قليلًا ثم قالت:

ـ الشركة الجديدة المالكة للبيت رفعت دعوى قضائية عليَّ لطردي من الشقة، وموعد نظر القضية بعد شهر.

بتقدم الربيع، ينضج الضوء الناعم الذي كان يلف الحديقة، ويغدو متوهجًا، وتشتد نضارة أوراق شجرة الجوز. في هذا الضوء المشبع سبحت ندف دقيقة في الهواء. ألياف رفيعة وكرات خفيفة تتهادى ببطء متخللةً المكان. يحمل الهواء هذا الغبار القطني عبر الحديقة، فتنال كل شجرة نصيبها من حبوب اللقاح، ثم ينتقل الغبار إلى الشارع ومن هناك إلى باقي المدينة. يتسرب من النوافذ والأبواب، يدخل الغرف ويلامس قطع الأثاث، والملابس والأرضيات. تظل الندف تتهادى بخفة، كلما مر هواء عابر، متلافية الاصطدام بالأجسام الصلبة، حتى تستقر فوق الأرض بجوار الغبار والأتربة. وتبقى الندف هناك حتى تزيحها قَدم عابرة، أو تكنسها يد غير مكترثة. في مثل هذا الوقت من كل عام تتجدد الحياة كأمل أعمى ينتشر فوق أوسع رقعة ممكنة، يمكن للمسة صغيرة منه أن تجعل الحياة تتفتح من جديد. لكن هذا الاحتمال يكاد يكون مساويًا

t.me/qurssan

لاحتمال أن ينزوي ذلك الأمل منسيًّا، كهدية ضلت طريقها ولم تجد صاحبها.

قررت مروة ألا تذهب إلى الاستديو في هذا اليوم، وعادت إلى البيت بعد أن أوصلت نور إلى المدرسة. كانت سارة قد أمدتها برقم تلفون صديقة لها محامية، فاتصلت بها، وأخذت منها عدة أسماء لمحامين متخصصين في قوانين السكن. سجلت مروة الأسماء في ورقة أمامها، ثم أخذت تبحث عن عناوين هؤلاء المحامين في الإنترنت، حتى تستطيع أن تختار أحدهم. جلست تتصفح المواقع وتقرأ ما كتبه المحامون عن أنفسهم. بعضهم يضع صورًا فوتوغرافية لنفسه، وبعضهم يضع صورًا لمكتبه. تتابعت أمام عينَيها المواقع وازدادت حيرتها، ثم تسللت إليها، وهي جالسة، الرائحةُ القادمة من المقهى القريب، التي كانت تكرهها كثيرًا. رائحة بُن رديء تُرك في ماكينة القهوة الاسبرسو لدرجة الاحتراق. طغت هذه الرائحة مؤخرًا بعد أن كثرت مقاهي «الهيبسترز» في شارعها، مقاهٍ يَؤُمها شباب يتحدثون الإنجليزية أو الفرنسية، يجلسون أمام حواسيبهم، وعندما تسطع الشمس يمدون أرجلهم إلى نهر الطريق. ذهبت إلى المطبخ لكي تغلق نافذته،

t.me/qurssan

وحانت منها التفاتة، فرأت في الأسفل سامي يحمل كرتونة عزال ضخمة ويسير بها عبر الحديقة الخلفية. تلاه شابان يحملان غسالة ملابس. ثم ظهر شابان آخران يحملان خزانة ضخمة. بعدها رأت ابن سامي الصغير وهو يحمل صندوق ألعابه. غاب الجميع عن نظرها في اتجاه بوابة البيت، ثم عادوا بعد ذلك ليبدأوا جولة نقل جديدة فيما بدا أنه عزال عائلة سامي.

وقفت نور أمام الأصيص وسألت:

ـ ماما، متى سيظهر الريحان؟ لقد مر أسبوعان الآن ولم يظهر شيء.

قالت لها مروة إن هذا أمر غريب بالفعل. ربما هذه البذور بحاجة إلى وقت أطول، فهي من بيروت، أحضرتها سارة معها المرة الماضية. شردت نور قليلًا ثم سألت:

ـ ماما، متى سأكبر أنا؟

فأجابتها مروة أنها تكبر بسرعة، فها هي الآن أصبحت في المدرسة. ثم سألتها:

ـ ماذا تريدين أن تفعلي عندما تكبرين؟

t.me/qurssan

فأجابت نور أنها تود أن تكبر بسرعة أكبر حتى تكون باستطاعتها مساعدة أمها الآن، فضحكت مروة وقالت:

ـ ولكني سأكون أنا أيضًا كبرت بسرعة.

فعبست نور وقالت:

ـ ألا تستطيعين أن تنتظريني حتى أكبر؟

ضحكت مروة مرة أخرى وقالت:

ـ لا، لا يمكنني أن أنتظر للأسف. لكن أتعرفين؟ هناك طريقة يمكنك بها مساعدتي.

فتهللت أسارير نور وقالت:

ـ كيف؟

فكرت مروة قليلًا وقالت:

ـ لا أدري كيف يمكنني أن أشرح ذلك، ولكني سأحاول.

سكتت للحظة ثم قالت إن بإمكان الأبناء عندما يكبرون أن يجدوا حلولًا أفضل من الحلول التي أتى بها الآباء للمشكلات التي وقفوا أمامها، وبذلك يكونون قد ساعدوهم. فقالت نور:

ـ لكن هذه المشكلات سيكون قد مرَّ عليها وقت طويل وستكون انتهت.

t.me/qurssan

فأجابت مروة:

ـ المشكلات الحقيقية لا تنتهي أبدًا.

انزعجت نور وقالت:

ـ أنا لا أفهم شيئًا، كيف ساعدتِ أنتِ والديكِ إذن؟

تنهدت مروة وقالت:

ـ أنا أحاول. لقد حكيت لكِ أن جدَّكِ لم يتحدث معي بالعربية كثيرًا لأن ذلك في رأيه قد يشتت انتباهي في الطفولة، ولن يساعدني على الشعور بأن ألمانيا هي بلدي.

فأجابت نور:

ـ نعم حكيتِ لي.

صمتت مروة قليلًا ثم قالت:

ـ لكني تعلمت اللغة بعد ذلك، لأني عندما كبرت فهمت أن الحل الذي قدمه أبي لوضعنا لم يكن هو أفضل الحلول. فتعلمت العربية وحدي.

ضاقت نور ذرعًا بهذا الحديث وقالت:

ـ ماما، أنا لا أفهم شيئًا.

t.me/qurssan

فأجابتها مروة:

ـ ولا أنا. لا تشغلي بالكِ يا حبيبتي. هيا بنا لننام.

عملت مروة طوال اليوم في الاستديو. كان مزاجها رائقًا لأول مرة منذ انفصالها عن زوجها الشتاء الماضي. شغَّلت موسيقى تحبها، وأخذت تكتب في ورقةٍ أسماء بعض البحيرات القريبة من المدينة، وفكرت أن نور سوف تبتهج عندما تقترح عليها أن يذهبا إلى إحدى تلك البحيرات في عطلة نهاية الأسبوع القادمة. بعد الظهر عملت على الطلب من جديد. بيضت النبذة التاريخية التي كتبتها عن تاريخ شكل المعجم في اللغة العربية. أكملت قائمة أسماء الكُتاب والفنانين والأكاديميين المدعوين لورشة بيرزيت، وأعادت كتابة بعض المقاطع في طلب التقديم، وأرفقت ميزانية المشروع التي وضعتها سارة، ثم أجرت مكالمة «سكايب» سريعة معها، وقالت لها إنها انتهت من العمل على الطلب، وأرسلته إلى صديقتها لكي تطَّلع عليه قبل آخر موعد لتَلقي الطلبات، وهو منتصف ليل الغد. فأخبرتها سارة أنها ستفعل اليوم، وترسل لها ملاحظاتها. واتفقتا أن

t.me/qurssan

تقوم مروة برفع الطلب إلى موقع القسم لأن سارة ستسافر إلى خارج بيروت، ولن تأخذ معها حاسبها. بعد أن فرغت مروة من المكالمة رفعت صوت الموسيقى وقامت ترقص وحدها. فوق مكتب سارة، لم تتوقف السمكة الخشبية عن هز ذيلها.

نام الجميع وغرقت الحديقة في نور البدر الفضي، ولم يرَ أحد كيف شقَّت ثلاثة رؤوس معدنية الأرضَ بين شجرتَي الكرز والجوز. تحت ضوء البدر المنير برزت الرؤوس المدببة من التربة، ولمع معدنها البارد. ربما احتاجت إلى وقت طويل لتظهر، لكن قوة النداء الذي أيقظها لا تقاس بسرعة الاستجابة له، وإنما بحجم الصعوبات التي يتم تخطيها من أجله، إذ كلما كان النداء قويًّا، كانت الرغبة التي تدفع من يلبيه عارمة في أن يجمعه حاضر واحد مع النداء الذي أيقظه، فالنداء الحقيقي هو دائمًا نداء للظهور، والاستجابة له تعني الخروج من الخفاء إلى النور. لكن النداء، وإن كان ينطلق من حاضر ما، فإنه لا يرغب في توسيع رقعة هذا الحاضر، وإنما في تغييره من خلال إشراك الخارج فيه. كل نداء هو خيط رفيع ينفتح فيه الحاضر على الخارج. وما إن

t.me/qurssan

يُلبَّى هذا النداء، حتى يبدأ الحاضر فورًا في الاهتزاز، وتظهر الشقوق والتصدعات في جدرانه.

كان يومًا جميلًا للغاية، صفت السماء فيه، واعتدلت الحرارة. وذهبت مروة مع نور باكرًا إلى بحيرة «موجل زيه»، حيث قضتا اليوم كله. نزلتا المياه، ولعبتا على الشاطئ، وأكلتا ما أحضرتاه معهما، ثم نامتا على العشب. وعندما عادتا إلى البيت كان هناك شيء غريب في انتظارهما. كانت الشوارع مزدحمة بشكل غير طبيعي، والسيارات واقفة لمسافة كيلومترات، ورأتا تجمهرًا كبيرًا على مدخل الشارع، وعندما اقتربتا وجدتا أن الشرطة تمنع الناس من دخول الشارع. حاولت مروة أن تستفهم من الواقفين عما يحدث، فكانوا يقولون لها كلامًا عن وجود قنابل، لكن لم يبدُ على أحد الانزعاج. لم تفهم مروة أي شيء، وقبضت على يد نور واستطاعت شق طريقها حتى وصلت إلى أحد الشرطيين الواقفين، وسألت عن ماذا يحدث. فقال الشرطي:

ـ آه، تتحدثين الألمانية. سيدتي، لدينا مشكلة كبيرة هنا. لم أرَ في حياتي قنبلة وزنها نصف طن.

فقالت مروة:

t.me/qurssan

ـ نعم أتحدث الألمانية رغم أن شكلي قد لا يوحي بذلك. هل لك أن تخبرنا الآن ما الذي حدث؟

أجابها الشرطي أنهم لا يعرفون ماذا يحدث، وهذه هي المشكلة الكبيرة، إذ لا أحد يعرف كيف خرجت القنابل، وبالتالي لا يُعرف كيف سيكون مسلكها في اللحظات المقبلة، ما يضع فِرق إبطال القنابل تحت ضغط كبير. كان الشرطي يتحدث بتأثر، ثم قال:

ـ نحن حقًّا أمام مشكلة كبيرة.

فحملقت فيه مروة وقالت:

ـ نعم لدينا بالفعل مشكلة كبيرة، جميل أنكم لاحظتم هذا أخيرًا.

بعد ساعات قليلة قامت بلدية الحي بتجهيز خيمة طوارئ في الشارع من أجل استقبال السكان الممنوعين من دخول بيوتهم، بها جزء لتقديم الوجبات الساخنة، وجزء خاص بالأطفال يلعبون فيه بصحبة بعض المربين. انسلت نور إلى ركن الأطفال، ووقفت مروة تتابع التلفزيون في المكان المخصص للجلوس وهي لا تزال تجهد لفهم ما يحدث. قال مذيع التلفزيون:

t.me/qurssan

ـ ما زال سبب ظهور القنابل في الحديقة الخلفية لإحدى البنايات في حي نويكولن يُشكل لغزًا كبيرًا للسلطات، إذ إن من المعتاد العثور على مثل هذه القنابل أثناء أعمال الحفر والبناء، لكن لم تكن هناك أي أعمال حفر في تلك البناية أو في البنايات القريبة. وقالت الشرطة إن القنابل الثلاث التي ظهرت في حي نويكولن بريطانية الصنع، زنة كل منها ٧٥٠ كلجم، مرجحةً أن تكون قد أُلقيت على مدينة برلين في غارة جوية عام ١٩٤٤. جدير بالذكر أن ثلاثة من فريق تفكيك القنابل قد قُتلوا قبل خمسة أعوام أثناء محاولتهم تفكيك قنبلة تم العثور عليها في أحد مواقع الحفر والبناء في برلين. وتُقدِّر السلطات عدد السكان الممنوعين من العودة إلى بيوتهم بنحو ألفَي شخص.

تطلعت مروة حولها في وجوه الجالسين، تعرفت على بعض من تعرفهم من سكان شارعها. كان هناك كثيرون، فقدَّرت أنهم من شوارع أخرى أخلتها الشرطة. ودخل الليل، وجلس معظم المتواجدين يتسامرون في مزاج معتدل. وفجأة تذكرت مروة موعد الليلة، فانتفضت وأسرعت إلى نور وقالت لها إنها ستعود سريعًا، وانطلقت

t.me/qurssan

نحو البيت حتى وصلت الكردون، فأوقفها شرطي آخر. قالت مروة وهي تلهث إنها يجب أن تحضر جهاز المحمول الخاص بها فورًا للضرورة القصوى، فأخبرها الشرطي أن ذلك ممنوع لأنه قد يُعرضها للخطر، فالأطقم الأمنية لا تزال تعمل. ثم زعقت مروة وقالت إنها يجب أن تحصل على جهازها قبل انتصاف الليل لأسباب تتعلق بعملها. لكن الشرطي أخبرها أنه لا يستطيع تركها تدخل، وأن ذلك من أجل أمانها. فصرخت مروة:

ـ وماذا تعرف أنت عن أماني؟

لم يبدر عن الشرطي رد فعل، فاقتربت مروة منه وقالت متوسلة:

ـ أرجوك، تفهَّم موقفي، إنها مسألة حياة أو موت، أنا في أشد الحاجة إلى جهازي وإلا ستَحدث كارثة.

فابتسم متفهمًا، لكنه بقي على موقفه. بقيت مروة تحدج الشرطي وهو يحدجها في صمت. ابتعدت مروة عن الكردون وأخرجت هاتفها واتصلت بسارة. وقالت بصوت مخنوق:

ـ لن أستطيع إرسال طلب التقديم على المشروع قبل موعد غلق باب الطلبات منتصف الليلة.

t.me/qurssan

فطلبت منها سارة أن تهدأ وتخبرها بما حدث. لكن لم يكن باستطاعة سارة فهم الكثير مما تقوله مروة بسبب اختناق صوتها بالبكاء. فسكتت سارة قليلًا، ثم طلبت من مروة ألا تقلق، لا بد أن هناك حلًّا. لكن مروة لم تتوقف عن البكاء، وأخذ صوتها يتصاعد حتى أصبح نشيجًا.

افترش الناس الأرض في الخيمة استعدادًا للنوم، بعد أن تبخر أملهم في العودة إلى منازلهم سريعًا. عندما عادت مروة إلى الخيمة كانت نور تجلس متعبة على أحد المقاعد. نظرت نور إلى أمها وقالت لها:

ـ هل أنتِ حزينة مرة أخرى؟

فاحتضنتها مروة ولم تستطِع منع نفسها من البكاء. ثم جاءت إحدى المساعدات وجهزت فرشة على الأرض بالقرب منهما، واصطحبتهما برفق إلى هناك. سارت مروة ببطء شديد، ثم تمددت في حضن نور ونامتا. في الصباح أفاقت على الحركة في الخيمة، فنهضت ووجدت نور في ركن المشروبات والمأكولات. تناولت كوبًا من القهوة، وسمعت مذيع النشرة الإخبارية يقول:

t.me/qurssan

ـ لا يبدو أن أزمة حي نويكولن في طريقها إلى الحل، فقد أعلنت الشرطة أن أطقم تفكيك القنابل اكتشفت من خلال فحص المجال المغناطيسي وجود قنابل أخرى مدفونة في المنطقة على أعماق مختلفة. وقال بيان للشرطة إن وجود القنابل لا يشكل في حد ذاته سببًا للقلق، لأنها مدفونة ومن غير المحتمل انفجارها، لكن عدم وجود سبب واضح يفسر ظهورها المفاجئ على السطح، يجعل من الأفضل توخي الحذر. وأشار البيان إلى أن عددًا أكبر من السكان سيتم إجلاؤهم عن مساكنهم، ومن غير المعروف حتى الآن موعد عودتهم، في ظل استمرار لغز ظهور القنابل.

في اليوم التالي زاد القلق والتوتر بين الناس في الخيمة، مع تواري الأمل في العودة قريبًا إلى المنازل. البعض ترك الخيمة وذهب إلى الأصدقاء أو المعارف في أحياء أخرى من المدينة. والبعض الآخر تقطعت به السبل فبقي مضطرًا. في الطرف الأبعد للخيمة تشكلت فراغات مفصولة بأغطية للنوم داخلها. وجلست «فراو دوزيدلا» بصحبة بعض المسنات بالقرب من ركن الأطفال يتحدثن عن ذكريات طفولتهن مع الحرب العالمية. في الزاوية المخصصة

t.me/qurssan

للتلفزيون جلس البعض يشربون الشاي والقهوة ويتندرون بأن الحرب التي يشاهدونها على التلفزيون وصلت إلى هنا فجأة، لكن القنابل لم تعد تسقط من السماء كما يحدث في بلدان أخرى، وإنما تخرج عليهم من الأرض. ثم دار الحديث حول الحروب القديمة والحروب الحالية. بالقرب من الباب كان هناك مكتب صغير للمعلومات، جلس فيه شباب يقدمون المساعدات، ويتواصلون مع مسؤولي البلدية. إحدى الشابات كانت تتحدث مع مذيع تلفزيوني حول الوضع حاليًا في المكان. وأمام الخيمة وقف سامي وقد فتح باب سيارته الخلفي، وأخذ يفرغ حمولة السيارة من الأطعمة الخفيفة وزجاجات المياه المعدنية، وحفاضات الأطفال، والبطاطين، بمساعدة بعض شباب الحي.

وقفت شجرتا الكرز والجوز في الحديقة الخلفية، وبينهما أطلت القنابل الثلاث. حول الشجرتين تناثرت بتلات زهور الكرز، التي طفت فوق سطح المياه الجوفية المتسربة من مواضع خروج القنابل. تحت الحديقة ترسبت طبقات ركام وأنقاض لا تنتهي. كل بداية جديدة تُلقي بطبقة جديدة، وفي باطنها تسري جداول من نار.

t.me/qurssan

من كل ركن وزاوية تتدفق أنهار صغيرة مشتعلة. يتجمع سائلها المصهور في عُقد عديدة، تربط بينها قنوات رفيعة، كأنها نبضات عصبية تربط بين شبكة كبيرة. في كل عقدة تتتالى الانفجارات، فتتضاغط وتتخلخل موجات جديدة من الحرارة. كل وضع جديد يأخذه الركام في تلك العَقَد هو وضع هَش، مُعرض دائمًا للانفجار. لمسة بسيطة، شرارة صغيرة، ويحدث انفجار كبير. حركة صغيرة وتتغير مصائر كثيرة. من قلب هذا الظلام الدامس تنبعث همهمات كثيرة لا يسمعها أحد، وتهب ريح عاتية لا يشعر بها أحد.

ـ ماما!

ـ نعم يا حبيبتي.

ـ لقد دفنتُ الخاتم في أصيص الزرع.

ـ ماذا؟

ـ حفرت بإصبعي حتى وصلت إلى قاع الأصيص ووضعته هناك، ثم أهلتُ التربة فوقه.

ـ ...

t.me/qurssan

ـ هل أنتِ حزينة الآن؟

حملقت مروة في ابنتها، ثم أخذتها في حضنها وهي تخفي دموعها.

t.me/qurssan

أديم الأرض

اقتربت سيارة النقل، ثم ألقت بحمولتها محدثة جلبة كبيرة. انتظرنا حتى هدأ الغبار، ثم نقلنا الجثث من الكومة الكبيرة التي خلفتها السيارة، وصففناها واحدة جوار الأخرى. استلمتُ إحدى الجثث وهششتُ بمعولي حدأة كانت تنقر كبدها، ثم شرعت في مسحها بخرقة مبللة وأنا شارد الذهن أفكر في الأحداث الغريبة التي وقعت لي هذا الصباح، إذ إنني فتحت عينيَّ على وجه امرأة لا أعرفها في غرفتي تقول لي إن الوقت قد تأخر وإن عليَّ الاستيقاظ الآن. تطلعتُ إليها محاولًا معرفة من هي، فقالت لي:

ـ إلى ماذا تنظر يا رجل؟ انهض!

قمت مندهشًا وخرجت إلى الصالة ووقفت فيها حائرًا، عندها دخلت صبية صغيرة وهي تقول لي:

ـ صباح الخير يا بابا.

t.me/qurssan

فانعقد لساني. من هذه المرأة؟ ومن تلك الطفلة؟ وكيف أتيتا إلى منزلي؟ جلستُ إلى طاولة المطبخ أحتسي الشاي وأتطلع إلى المرأة التي تتحرك بألفة شديدة في المطبخ، وحولها تدور الفتاة وتعلق على الساندويتشات التي تصنعها المرأة لها. ثم التفتت تجاهي وقالت:

ـ سأعدُّ لك الفول حالًا.

أخذت أُعمِل ذهني محاولًا تذكر ماذا حدث لي في الليلة السابقة، وكيف انتهى بي المطاف في بيتي الذي أعرفه مع امرأة وطفلة لا أعرفهما، لكني فشلت في تذكر أي شيء غير عادي. قالت الطفلة إنها ستنتظرني اليوم كما اتفقنا. فتلعثمت قائلًا:

ـ ماذا؟

فتدخلت المرأة وقالت:

ـ هل نسيت؟ لقد وعدتها أنك ستذهب إلى المدرسة اليوم لكي تلتقي المعلمة.

فتطلعت إليها ولم أعرف بماذا أرد.

جاءونا بكثير من الجثث. شاحنة وراء أخرى. وبدا على جثث

t.me/qurssan

اليوم أنها تعرضت للحرق والاختناق، فقد كانت أطراف بعضها متفحمة، وأجساد بعضها الآخر منتفخة وعيونها جاحظة، كبهيمة نُفخت قبل السلخ. أخذنا نعمل بهِمة من أجل الانتهاء قبل مغيب الشمس. كان بعضنا يغسل الجثث، وبعضنا الآخر يحفر في الأرض. وبعد أن ينتهي المغسلون من مهمتهم، ننزع الخِرق التي يرتديها القتلى ونلف الجثث في كيس أسود إن توافر، وإن لم يتوافر وضعناها كما هي في الحفرة. وحاولنا أن تكون لكل جثة حفرتها الخاصة، لكن مع ضغط الوقت وازْدياد الجثث كنا نضع جثتين أو ثلاثًا في الحفرة نفسها. ومع تقاطر الشاحنات المحملة بالجثث لم نعد نجد مفرًّا من حَفر حُفَر كبيرة نملأها بالجثث ونهيل عليها التراب. تغسيل الجثث كان أمرًا يتسامح معه الحراس أحيانًا، لكنهم يجبروننا على تركه إذا زاد عدد الجثث توفيرًا للوقت. كذلك حامت الكواسر فوق رؤوسنا منتظرة اللحظة التي نبتعد فيها قليلًا عن الجثث حتى تنهشها، وتنقر أكبادها وقلوبها، فازدادت رائحة الزهومة حتى كادت تزهق أرواحنا. فسارعنا بالدفن كيفما اتفق، وأخذنا نعمل تحت شمس لا ترحم حتى اقترب المغيب. وعندما أنهينا جثث اليوم، صرفنا الحرس وقالوا إنه لا توجد شاحنات أخرى في الطريق.

t.me/qurssan

عندما عدتُ إلى البيت كانت المرأة لا تزال موجودة، وكانت الفتاة جالسة جوارها في الصالة أمام كراساتها. كان يبدو أنهما في انتظاري، وقالت لي الصبية:

ـ لماذا تأخرت؟ أنا في انتظارك حتى تذاكر لي.

تطلعت إليها حائرًا، وأنا منهك، تعلو جسدي طبقات الغبار والأشلاء اليومية، وتزكم أنفي الرائحة العفنة. لم أقل شيئًا وذهبت إلى الحمام. وقفت تحت الماء المنهمر وأنا أفكر في نظراتهما اللائمة، تلك النظرات التي تحمل عتابًا على شيء لا أعرفه، هل كانتا تنتظران حقًّا أن أذهب إلى المدرسة؟ لكن أي مدرسة؟! أنا لا أعرف عن ماذا تتحدثان، بل لا أعرف من هما. ثم استسلمت لدفقات الماء الدافئ فوق رأسي. وعندما خرجت من الحمام وجدت المرأة قد أعدت عشاءً، فجلسنا حوله وأنا عاجز عن فهم ما يحدث، وتناولناه صامتين. ثم طلبت المرأة من الصبية أن تخلد إلى النوم، وقالت بعد أن انصرفت:

ـ هل هناك ما يزعجك في العمل؟ أم هل هناك ما يضايقك مني؟ لعلِّي أستطيع التخفيف عنك قليلًا إذا حكيت لي ماذا يزعجك.

فقلت لها بهدوء:

t.me/qurssan

ـ من أنتِ؟

فنظرت إليَّ بحدَّة ثم انفجرت في الضحك وقالت:

ـ هذه مزحة، أليس كذلك؟

فأجبتها:

ـ أنا لا أمزح. أنا لا أعرف من أنتِ ولا كيف دخلتِ إلى بيتي.

أمرُّ في الطريق إلى العمل كل يوم ببناية آيلة للسقوط، وأرى كيف يقوم العمال بطَرق جدرانها بمعاولهم لهدمها فتتناثر شظايا الحجارة فوق الطريق. كانوا يقفون بصدور عارية وهم عاصبو الرؤوس يطرقون الحجارة الحمراء بشدة، حتى يثقبون فيها ثغرة، ثم يقومون بتوسيع هذه الثغرة. وجوههم مكفهرة على الدوام وجلودهم تلمع تحت نور الشمس. وعندما تتسع الثغرة بشكل كافٍ، ينهار الحائط بأكمله محدثًا جلبة عظيمة وسحابة من الغبار. سرت بجوار البناية اليوم ثم انعطفت إلى الساحة الصغيرة، حتى وصلت إلى العمل، وانشغلت بالجثث التي بدت عليها اليوم آثار التعرض لآلات حادة، فقد كانت مليئة بالجروح القطعية، جروح عميقة تطلُّ من باطنها

t.me/qurssan

العظام البيضاء، وأخرى أقل عمقًا لكن أكثر عرضًا. بدا أن شفرات الآلات الحادة كانت مختلفة الحدَّة والصلابة، فقد كان بعض الجثث مبتور الأصابع، ما يوحي باستخدام آلة مثل الساطور أو الكازلك، وبعض الجروح الأخرى كان مشرشرًا، كأنه شُق بمنشار. رأيتُ جثة شاب حليق الرأس تتدلى رقبتها من نسيرة لحم واهية هي آخر ما يربطها بالجسد، ويرشح منها هلام أسود متجلط. ورأيتُ جثة امرأة ساقاها ملويتان تحتها بزاوية غير طبيعية، فقدَّرت أن حوضها قد تهشَّم.

في الأوقات التي تهدأ فيها حرارة الشمس، وتقل وتيرة العمل، كنا نتكئ على معاولنا لندخن السجائر، ونتطلع إلى الشوارع المحيطة بنا، إذ لم تكن هناك أسوار أو حواجز تفصل ما بيننا وبين تلك الشوارع، فنرى الناس يروحون ويغدون، وقد نميز وسطهم بعض من نعرفهم، لكنهم لم يكونوا يتطلعون إلينا. الحديقة التي نعمل فيها تقع في ساحة صغيرة تحيط بها البنايات والمحلات التجارية من كل جانب، ولا تهدأ الحركة في المكان طوال اليوم، الموظفون يسيرون صباحًا إلى عملهم، والتلاميذ يتسكعون في جنبات الساحة بعد أن يخرجوا من المدرسة

t.me/qurssan

ظهرًا، والأمهات يجرجرن آخر النهار أبناءهن في طريقهن لشراء حاجياتهن. كنا نتطلع إلى كل ذلك، ثم نتسامر قليلًا مع بائعة الشاي التي تجلس في مدخل الحديقة، حتى تأتي عربة جديدة تلقي بالجثث أمام أقدامنا، فنعود إلى العمل، وترنو البائعة بعينيها بعيدًا.

في كل مرة أعود فيها إلى البيت، أحلم أني سأفتح الباب فأجد أن الكابوس قد انتهى، وأن بيتي عاد خاليًا. لكن أحلامي تتبخر دائمًا بمجرد ولوجي إلى البيت. واليوم ما إن دخلت الصالة حتى صرفتِ المرأةُ الصبية، ووقفت أمامي طالبةً مني أن أريها بطاقتي الشخصية. كان صوتها متحشرجًا وتبدو عليها آثار البكاء. وقفتُ مستغربًا طلبها، فأشارت إلى جيبي وقالت:

ـ أرِني بطاقتك.

فأخرجت محفظتي وتناولت بطاقتي وأعطيتها لها. نظرت إليها بسرعة، ثم وضعتها أمام عينيَّ وقالت:

ـ ما المكتوب هنا؟

أمسكت بالبطاقة وتطلعت حيث أشارت، وقرأت لدهشتي:

t.me/qurssan

ـ متزوج.

ثم أخرجَت ورقة مطوية من جيبها وفردتها وقالت:

ـ ما هذه؟

فأمسكتُ بالورقة. كانت قسيمة زواج، عليها اسمي واسمٌ آخر لا أعرفه. زاد صوتها حشرجة وسألتني وهي تنشج عاليًا:

ـ هل يكفي هذا، أم تريد أن أريك شهادة ميلاد ابنتك؟ هل عرفت الآن من نحن؟ هل يكفيك ذلك؟

كانت تصوب عينيها نحوي، وصوتها المتحشرج يرتفع، وأنا أمسكت بالقسيمة والبطاقة متطلعًا إليهما من دون أن أفهم شيئًا. حتى جاءت الطفلة على أصواتنا وهي تبكي هي الأخرى، وأخذت تنادي وهي ترتجف:

ـ ماما! ماما!

لم يبدُ للعمل في البيت الآيل للسقوط من نهاية، فلم تنقص طوابقه كثيرًا بتتابع الأيام، بل كان دائمًا آيلًا للسقوط، حتى إني توهمت وأنا في طريقي إلى العمل اليوم أن ما ينهار في الصباح يعود لينتصب في الليل، إذ كيف يمكن تفسير

t.me/qurssan

بقاء البيت على مدار الأيام ثابتًا في طور الانهيار. عندما أنظر إليه في طريقي كل يوم إلى العمل أرى كيف تنهدم بعض حوائطه تحت وطأة المعاول، لكني عندما أنظر إلى صورته المنطبعة في ذهني يومًا وراء يوم لا أرى شيئًا يتغير. بيت قيد الإزالة الأبدية. انشغلت بحكاية ذلك البيت حتى وصلت إلى الحديقة فوجدت زملائي متحلقين حول بائعة الشاي، فانضممت إليهم. حتى جاء الحراس، وتقاطرت العربات المحملة بالجثث. وككل يوم ينغلق علينا العالم في هذه الساعة دون أي حواجز، فيسير الناس حولنا ولا يروننا، بل إن بعضهم كان يدخل ويتريض في طرقات الحديقة وسطنا من دون أن يرف له جفن. استلمنا جثث اليوم، وكان معظمها بلا رؤوس. ثم شرعت في الحفر.

في بداية عملي لاحظت أنني كلما حفرت حفرة جديدة لا أجد أي أثر للجثث التي دفناها في اليوم السابق. كل يوم كنت أتوقع أن أجد عظمة بيضاء مثلًا وأنا أحفر، أو أن أعثر على جمجمة مشجوجة، لكن معولي لم يكن يصطدم بأي شيء صلب في موضع ارتطامه بالأرض، فأدركت أن اتساع الحديقة التي نعمل فيها لانهائي رغم

t.me/qurssan

حدودها الواضحة، فكلما أحضروا مزيدًا من الجثث وجدنا مكانًا فيها خاليًا من الجثث رغم امتلائها، كأن أرضها لا تشبع، تسحب كل ليلة ما دُفن فيها إلى أعماقها السحيقة، فتصهره في قلبها الفائر، ثم تستبدل الطبقات التي امتلأت بالجثث بأخرى جديدة، فتستقبلنا الأرض كل صباح مستوية تطلب المزيد. على أني لاحظت أن سطح الأرض يصبح موحلًا بمرور الوقت، ويكتسب طبقة رخوة تميل إلى الرطوبة، لكن هذه الرطوبة لم تكن منتشرة في جميع أرجاء الحديقة. بعض البقع كنت أحفر فيه فأواجَه برطوبة سرعان ما تختفي مع الاستمرار في الحفر، وفي مواضع أخرى كنت أغوص في الوحل لكاحلي كأني في مستنقع صغير.

استيقظتُ لاهثًا على حلم رأيت فيه نفسي أُقلِّع أظافر يدَي وقدمَي جثة، ثم أنهال عليها بمعولي حتى تتناثر أحشاؤها. وعندما نهضت أخذتني المفاجأة، إذ لم أكن في غرفتي، أو بالأحرى كان سريري قد تحرك إلى الحائط الآخر، ولم أعثر على خزانة الملابس. كانت الجدران عارية، والأرضية خالية من الكليم الذي يغطيها عادةً. خرجت وأنا أجد صعوبة في العثور على طريقي، فقد غدت طاولة

t.me/qurssan

السفرة في زاوية أخرى من الصالة، وتحركت الكنبة من مكانها. اصطدمت بالمرأة التي في منزلي وقالت لي:

ـ ماذا حدث؟

فقلت لها:

ـ أنا الذي أسأل ماذا حدث؟ لماذا تغيرت أماكن الأشياء؟ وما الذي حدث لغرفتي؟

فقالت:

ـ هل نسيت؟ لقد اتفقنا أن المنزل بحاجة إلى بعض التجديد، لعله يريح أعصابك.

نظرت إليها ذاهلًا، ثم أكملت هي:

ـ أنا أخبرتك أمس أني نقلت الأشياء خارج غرفتك لكي نقوم بأعمال التجديد فيها. سوف يأتي النقَّاش خلال اليومين القادمين لتجديد طلاء الغرفة.

فصرختُ في وجهها:

ـ من أعطاكِ الحق في فعل ذلك؟

فقالت:

ـ لم أعد أتحمل جنونك، لقد رأيتَ كل ذلك الليلة السابقة بعد عودتك من العمل وأفهمتُك ما يحدث.

t.me/qurssan

كنتُ أتصبب عرقًا، وكان جسدي ينتفض من الغضب. صرختُ قائلًا:

ـ غادري هذا البيت فورًا، أنا لا أريد رؤيتكِ فيه يومًا آخر. اخرجي من هنا فورًا.

لم تتوقف سيارات النقل عن المجيء اليوم. تلقي الجثث كيفما اتفق، فنقوم بتصفيفها جوار بعضها. كان بعضها قد فقدَ أطرافه وتعفن اللحم عند تلك المواضع مُصدرًا رائحة بشعة، وبعضها الآخر مبقور البطن. وقفت أمرر خرقة الماء على تلك الوجوه والأجساد وأمسح نتف اللحم وتجلطات الدم من عليها. كانت الوجوه التي أراها ساكنة، أمرر الخرقة على وجنتيها، ثم رقبتها، ثم جبهتها، وجهًا وراء وجه. وفجأةً فتحت إحدى الجثث عينيها وأنا أغسلها. تسمرت من المفاجأة وجمدت يدي التي تحمل الخرقة، ووقفت في انتظار ماذا سيحدث، لكن لم يحدث شيء. لم تنهض الجثة أو تتحدث. بقيت في موضعها كما هي بعينين مفتوحتين. تطلعت حولي مذعورًا، ثم حاولت أن أغلق العينين، فانفتحتا مرة أخرى من تلقاء نفسيهما. ثم رأيت حدأة تهبط فوق صدر جثة بجواري لتنقره، لكنها ارتدَّت من فورها وفردت جناحيها وطارت بعيدًا بعد أن

t.me/qurssan

فتحت تلك الجثة عينيها أيضًا. أُسقط في يدي ولاحظت هرجًا ومرجًا حولي، وأدركت أن زملائي حدث معهم ما حدث معي، فأصابنا جزع شديد، وألقينا ما بأيدينا ووقفنا ننظر إلى طوابير الجثث مفتوحة الأعين أمامنا ونحن نتصايح. ثم جاء الحرس ليستطلعوا الجلبة وأخذوا يتطلعون كذلك إلى الجثث المبصرة، ثم أمرونا بدفنها كما هي، لكننا رفضنا ذلك بشدة، فوجَّه أحد الحراس بندقيته إلى إحدى الجثث وأطلق رصاصة في صدرها بعد أن شك أنها ما زالت حية، وهو ما كان يحدث أحيانًا، لكن تلك الجثة كانت ميتة بالفعل. ثم بسط راحته وأغلق عينيها، فعادت وانفتحت مرة أخرى. فأصابه الغضب وأطلق الرصاصة على العينين، فانفجرتا وانتشرت أشلاؤهما على ملابسنا. وقال إن الأمر انتهى، وعلينا أن نكمل عملنا، لكننا لم نستطِع. ثم زاد الهرج والمرج عندما قدمت شاحنة جديدة وألقت بكومات جديدة من الجثث.

استمر تمرد الجثث حتى الليل، كلما صففنا مجموعة جديدة وجدناها تفتح أعينها وتحدق أمامها فلا نستطيع دفنها. ثم جاءت مجموعة جديدة من الحرس وأطلقت في السماء طلقة مُفزعة أنارت المكان بوهج شديد كأنه شمس ظهرت

t.me/qurssan

في قلب الليل. صرخ الحراس فينا بأن ندفن الجثث كيفما اتفق. كان يومًا طويلًا، وكنا منهكين، وشمس الليل التي أطلقها الجنود تملأ المكان بنور ساطع. أخبَرْنا الحرسَ أننا لن ندفنهم ما دامت أعينهم مفتوحة، فجُن جنونهم وفتحوا النار على الجثث، فسالت دماء سوداء جديدة تحت أقدامنا وتطايرت شظايا المقذوفات ناحيتنا. وازداد سطوع شمس الليل فتصببنا عرقًا، وغصنا عميقًا في الدماء والأشلاء. وفي سورة من سورات اليأس تناول أحدنا معوله وهوى به فوق رأس أحد الحراس، فزاد جنون الحراس وأخذوا يطلقون النار عشوائيًّا. كان النور الساطع يعشو أعيننا، وكنا نتساقط وسط الجثث، ولم يعد الواحد منا يعرف ما إذا كانت الجثة قديمة أم أنها لزميل قُتل للتو، والحرس يدورون بجنون وسط الجثث، وشمس الليل تلهبنا، والكواسر تحوم فوق رؤوسنا. كنا نصرخ بجنون، والحرس يصرخون بجنون، ولعلعة الرصاص تخرق الآذان، فيزداد هلعهم وهلعنا، فيضغطون على زناد بنادقهم، ونقذفهم نحن بمعاولنا وما يقع تحت أيدينا، حتى سقط شيء ثقيل فوق رأسي فتبدد النور وأظلمت الدنيا، وخررت من فوري على الأرض.

عندما فتحت عينيَّ لم أكن وسط الجثث، وإنما كنتُ في

t.me/qurssan

بيتي. تطلعت إلى الساعة فوجدت أنها جاوزت منتصف النهار. نهضت من الفراش سريعًا وأنا أعرف أن هناك شيئًا كبيرًا قد حدث. تخبطت في طريقي بسبب التغيرات الكثيرة التي حدثت مؤخرًا في البيت، وارتديت ملابسي على عجل وخرجت فوجدت المرأة التي تقول إنها زوجتي جالسة مع أحدهم، فنظرَت إليَّ وسألتني إلى أين أنا ذاهب. ثم تطلع إليَّ الرجل الذي لا أعرفه وناداني باسمي متسائلًا عن أحوالي، وقال إنه يرغب في الحديث معي. لم أَرُد واتجهت إلى الباب، فأسرعت المرأة خلفي صائحة:

ـ انتظر، لقد جاء عمك ليجد معك حلًّا لهذا الوضع. أنا أريد أن أعرف إلى أين تذهب كل يوم؟ أنت لا تذهب إلى عملك. لقد جاء بالأمس أحد زملائك ليستفهم عن سبب انقطاعك الطويل عن العمل.

صفقتُ الباب خلفي، وأسرعت مهرولًا. كنتُ متأكدًا أن شيئًا قد حدث. وفي الشارع أدركت أن ما حدث كان عظيمًا، إذ إنني عندما مررت بالمنزل الآيل دومًا للسقوط، وجدت مكانه عمارة عالية. لم تبدُ عليها الحداثة، بل بدت كأنها موجودة في مكانها منذ سنوات. وقفت أمام البناية مجمدًا، ثم جاوزتها واتجهت مسرعًا إلى الحديقة، حيث

t.me/qurssan

كانت في انتظاري مفاجأة أكبر. لقد كان كل شيء عاديًّا في الحديقة، بائعة الشاي في مكانها، الناس تغدو وتروح حولها، والبعض يتريض داخلها بهدوء. في هذا الوقت من اليوم يكون العمل عادةً على قدم وساق. أين آثار معركة الأمس؟ وأين زملائي؟ وأين الجثث والحراس؟ أخذت أدور حول الحديقة محاولًا فهم مصدر الخطأ، بل إني سرت في مدقاتها الصغيرة لكني لم أرَ شيئًا. كان العشب يغطي الأرض، وسيقان النباتات تغوص في أحواض مسقية حديثًا.

كنت متأكدًا من أن المعركة لا تزال دائرة، وأنني الآن في موقعي هذا موجود بين رحاها لكني لا أراها. أكملت تجوالي في طرقات الحديقة وأنا مُطرق. لم أعد أفهم ماذا يحدث في حياتي. لم أعد أدري ماذا يحدث في بيتي، والآن لم أعد أدري ماذا يحدث هنا. هل أصبحت الآن مثل باقي الناس الذين نراهم غادين أو عائدين ونحن نعمل بينما هم لا يروننا؟ ثم ذهبت إلى البقعة الرطبة في الحديقة التي كنت أحفر فيها أمس. كانت البقعة مظللة بالخمائل ويسكنها صمت الظهيرة. هنا غاصت قدماي وأنا أقذف الحراس بما يقع تحت يدي. هنا بدأ تمرد الجثث. لا أعرف أين

t.me/qurssan

ذهب كل هذا، ولكني أعرف أن حياتي غدت متوقفة على معركة الأمس، التي لا أستطيع الآن دخولها، ولا مُنقذ لي سوى العودة إليها. فتهاويت على الأرض الموحلة، وأخذت أحفر بأظافري بجنون، بحثًا عن زملائي، بحثًا عن الجثث المبصرة، عن الحرس، عن الكواسر، عن روحي التي غادرتني. حفرتُ وقلبي يكاد ينفطر من استبعادي مما يدور حولي ولا أراه. كان الوحل يقل رطوبةً كلما غرست أصابعي بعمق أكبر في الأرض، لكن الأرض ظلت رطبة وطَفلية. بقيت أغرف الطين وأنا محموم، تنفذ ذرات التراب إلى عيني وفمي، فتختلط بدموعي ومخاطي، ويتخثر سائل بُني كثيف على وجهي وملابسي. ورغبت في أن أتخلص من آدميتي مع كل السوائل التي تنزُّ من جسمي، رغبت في أن أفرِّغ نفسي لعلي أصل إلى الحضيض، حتى شعرتُ بيدٍ تربت على كتفي. التفت فرأيت المرأة التي تركتها في البيت، فأقعَتْ بجواري وقالت لي:

ـ هيا بنا نعود.

وأمسكت بيديَّ، ومسحَت وجهي الملطخ بالطين وأنهضتني. وقفت أمامها أنظر إليها وأنا أشعر بذرات التراب في حلقي، وهي ضمت يديَّ إلى صدرها. سرنا بضع خطوات، ثم وقفتْ وواجهتني قائلةً:

t.me/qurssan

ـ هل تعرفني الآن؟

كانت عيناها رطبتين، ويدها ترتعش وهي تضم يدي. أخذت أتطلع إلى عينيها، ثم تَحرك لساني وخرجت كلمتان من فمي:

ـ نعم أعرفك.

بعدها أسلمت رأسي إلى حضن هند.

كان اللون الأزرق يشبه لون السماء في يوم صحو. لون لا نهاية لعمقه. بقيتُ أيامًا طويلة ممددًا أحملق في اللون الأزرق الفاتح الذي يحيط بي. وفوق سماء الغرفة عبرت سحب كثيرة. كنت أرى أناسًا لا أعرفهم، أو لعلي لا أتذكر معرفتهم. وجوه صامتة تنظر ناحيتي، كأنها في انتظار رد فعل مني. أحيانًا كنت أميز بعض الوجوه، فأرى أبي وأمي، أرى أقارب لي لم أرَهم منذ عقود، ثم سرعان ما تتبخر الوجوه المألوفة، وتحل محلها حشود من الرجال والنساء على خلفية الأزرق الفاتح، كأنها محتويات مكتب سجل مدني انهار وتبعثرت أوراقه في الريح بعد أن ضربت كارثة المدينة، فأضِيع وسط هذه الحشود بعد أن تبخر أملي في أن تنقذني. من حين لآخر كانت هند تدخل إلى الغرفة

t.me/qurssan

حاملة معها شايًا أو بعض الطعام. تتركه بجانبي ثم تغادر الغرفة. وفي أحد الأيام انقشعت السحب، وصفا اللون الأزرق الفاتح، وتهاوت الوجوه حتى سكنت فوق سطح الأرض. فنهضتُ وفتحت باب الغرفة، ووجدت هند جالسة بالخارج تلفُّ شعرها حول إصبعها. نظرت إليَّ بقلق وسألتني:

ـ هل كل شيء على ما يرام؟

فابتسمت لها وقلت:

ـ نعم.

كنت قد بدأت آلف التغييرات التي أدخلتها هند على المكان، وكان كل شيء حولي يأخذ موضعه ببطء. ثم قلت لها:

ـ أريدُ الخروج قليلًا.

فقامت وسارت ناحيتي وهي تقول:

ـ لا، علينا التمهل، أنت ما زلت ضعيفًا، ولم يَحِن بعدُ الأوان للخروج.

فنظرتُ إليها وقلت:

ـ أرجوكِ.

t.me/qurssan

صمتت هند قليلًا، ثم قالت:

ـ حسنًا، كنت سأذهب لإحضار ليلى من المدرسة. لماذا لا تأتي معي؟

فوافقتُ على الفور. ركبت بجوار هند، وقادت هي السيارة في شوارع مزدحمة. كان الضوء الباهر يرهق عينيَّ، فأنظر بعيدًا. حتى وصلنا إلى مدرسة ليلى، فنزلت مع هند وسرنا نحو البوابة، وعندما رأتنا ليلى انطلقت ناحيتنا وهي مشرعة ذراعيها، فأخذتها في حضني وأنا أضحك وحملتها على ذراعي. في السيارة أصرَّت ليلى على الجلوس في حجري، وأخذت تملأ السيارة صخبًا وهي تتحدث عن يومها ومعلمتها وصديقتها دينا. انطلقت السيارة بنا، ثم قررت هند فجأة أننا لن نعود إلى البيت وإنما سنشتري أولًا آيس كريم، فطارت ليلى من السعادة.

سارت أيامي بهدوء وأنا مطمئن في كنف أسرتي الصغيرة. نادرًا ما أقابل أناسًا آخرين أو أحتك بهم، متبعًا في ذلك نصيحة هند، فقد كان رأيها أن أعصابي بحاجة إلى راحة، وأني يجب أن أبتعد عن كل ما يمكنه أن يزعجني، فكانت تحرص على عدم تركي وحيدًا، ثم

t.me/qurssan

تصطحبني معها عندما تغادر البيت لكي أغير الهواء. كل يوم كنا نذهب معًا في جولة صباحية نشتري فيها بعض اللوازم، أو نزور بعض محلات الموبيليا، فقد قررت هند أن نجدد أثاث غرفة الصالة لأن صحتي بحاجة إلى ذلك التجديد كما تقول. وكانت عندما تستشيرني بخصوص هذا الموديل أو ذاك، أنظر إليها وأقول لها إني لا أعرف، فتضحك هي وتقول:

ـ حمدًا لله على سلامتك. أنت لم تسعفني يومًا برأيٍ بخصوص أثاث البيت. إنها عادتك يا عزيزي.

بعد جولاتنا اليومية نذهب لإحضار ليلى، ثم نعود إلى البيت، فتدخل هند المطبخ لكي تطهو بعض الطعام، وتجلس ليلى في حضني في الصالة وهي تريني واجبها المدرسي، أو نلعب معًا بالآيباد. وفي المساء نجلس أمام التلفزيون، أو نخرج إلى البلكونة حتى يحين موعد النوم فأذهب إلى غرفة ليلى لأتأكد من نومها، وأُحكم الغطاء عليها إذا رأيته منسدلًا. ثم أدلف إلى الفراش بجوار هند.

وقع اختيار هند أخيرًا على صوفا على شكل حرف «L»، وقررَت أن نشتريها بالتقسيط. وذهبنا إلى الشركة لكي نتفق على تسليمها. ابتهجت هند بقطعة الأثاث الجديدة،

t.me/qurssan

وأثنى الموظف على اختيارنا، وأرانا كيف يمكننا بسحبة واحدة أن نفرد الجزء السفلي من الصوفا فتستوي فراشًا مناسبًا للضيوف. ثم وقَّعنا على الأوراق المطلوبة، وأخبرنا الموظف أن التسليم سيكون غدًا. تذكرت هند ضيق مدخل البيت فأعلمت الموظف بذلك، وأنه ربما سيتعين أن نُدخل الصوفا عبر النافذة مثلما فعلنا بمعظم قطع الأثاث في البيت. فقال بثقة:

ـ لا داعي للقلق على الإطلاق، سيكون العمال مستعدين لمثل هذا الاحتمال.

ونحن في السيارة عائدون لمحتني هند وأنا بجانبها وابتسمت، فسألتها لماذا تبتسم، فقالت:

ـ إنك تنظر إلى الشوارع كأنك لم تشاهدها منذ زمن طويل.

فقلت لها إن الشوارع تبدو كأنها تغيرت. فسألتني:

ـ وكيف ذلك؟

فقلت لها:

ـ لا أدري، لكن هناك شيئًا ما مختلفًا فيها.

فتنهدَت وقالت إنها دنيا غير الدنيا، اتجاه السير في الشوارع يتغير باستمرار، ونصف شوارع المدينة أصبح

t.me/qurssan

يغلق يوم الجمعة، لمنع خروج المظاهرات. فسألتها إذا كانت هناك مظاهرات لا تزال تخرج. فقالت إنها قلَّت كثيرًا. سألتها:

ـ وأين ذهب المتظاهرون؟

فنظرت ناحيتي مستغربة، ثم حولت نظرها إلى الطريق، وقالت:

ـ لا أدري.

ثم انصرفتُ إلى الفرجة على الشوارع من نافذة السيارة، ومحاولة معرفة ما الذي تغير فيها. رُحت أنظر إلى البيوت وهي تتتالى أمام عينيَّ، بنايات عالية وشاحبة، يسكنها أناس لا أراهم. كانت البيوت محاطة بأسفلت الطريق من كل ناحية، حتى بدت كأنها لم تخرج من الأرض وإنما وُضعت فوقها وضعًا. تساءلت عما عثروا عليه وهم يشقون الأرض من أجل بناء تلك البيوت، هل كانت التربة خالية أم أنها كانت تحمل آثار أناس سابقين فيها؟ هل كانت مثلًا مقبرة من عصر سحيق ثم أصبحت نسيًا منسيًّا؟ وددتُ أن أسأل هند عن ذلك، لكنها التفتَت إليَّ وقالت في نوبة من نوبات البهجة التي أصبحت تصيبها كثيرًا:

ـ أعتقد أن الوقت بات مناسبًا لكي ترى أناسًا آخرين.

t.me/qurssan

سوف أدعو عمك وابنه وعائلته للغداء معنا يوم الجمعة القادم. ما رأيك؟

استحوذت الصوفا الجديدة على اهتمام بندق بمجرد دخوله البيت وأخذ يتقافز فوقها، ثم انضمت إليه ليلى. وبعد أن انتهى الصغار من لعبهم، جاء دور الكبار ليختبروا الصوفا. جلس عمي على حافتها وقال:

ـ ما شاء الله مريحة.

أما خالد ابن عمي فأخذ يختبر الصوفا ويضغط على سطحها ويطرق عظمها، ثم قال إنها جيدة لكن كان علينا أن نسأله قبلها لأنه يعرف مكانًا يبيع أرائك تركية جيدة مثل هذه وأرخص كثيرًا. فضحكت هند بصوت عالٍ وقالت:

ـ حاضر يا دكتور خالد.

في حين ارتاحت منى زوجة خالد على الصوفا، وأسندت ظهرها، وقالت:

ـ لا يا خالد، هذه أفضل بكثير، ألف مبروك.

ثم خرج الطفلان ليلعبا أمام باب البيت، وتوجهت هند

t.me/qurssan

ومنى إلى المطبخ، وبقيت أنا مع الرجال جالسين على الصوفا الجديدة.

نظر إليَّ عمي وقال لي:

ـ كيف حالك يا ولدي؟

فأجبته أني بخير. فقال لي وهو لا يزال ينظر في عينيَّ:

ـ لقد قلقنا عليك.

ثم تدخل خالد قائلًا:

ـ إننا نتعب كثيرًا في حياتنا، ونستخف بأهمية الراحة. عملك في البنك يعرضك لقلق دائم بسبب المسؤولية، إضافة إلى الأعباء الجديدة التي تسبب فيها تغيير مدرسة ليلى مؤخرًا. وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد، فما يتبقى لدينا من طاقة يذهب به التلوث وحرق الأعصاب المستمر في الشوارع. أنا لا أستطيع أن أنظر إلى تلك الشوارع القبيحة وما يحدث فيها، وأتمنى أن تختفي من الوجود تمامًا، هي ومن يمشي عليها. عندما أكون في مشوار، أغلق عليَّ نوافذ سيارتي، وأشغل التكييف، ولا أفتحها إلا عندما أصل.

بقينا لوهلة ساكتين، ثم تابع خالد قائلًا إنه وعائلته سيذهبون إلى مرسى مطروح لقضاء أسبوع هناك، واقترح أن نلتحق

t.me/qurssan

بهم ونقضي الإجازة معهم. فابتهج عمي واستحسن الفكرة، وقال إننا لو قررنا أن نلتحق بهم فسينضم هو الآخر.

وأخيرًا أعلنت هند أن الطعام جاهز، فتحلقنا جميعًا حول المائدة التي اصطفت فوقها ثلاث صوانٍ كبيرة مستطيلة مغطاة بإحكام. وتناوبت زوجتي وزوجة ابن عمي رفع الأغطية عن الصواني بإيماءة مسرحية كشفت عن فخرهما بما أنجزتاه في المطبخ. ثم نهض عمي وأمسك بالسكين وشرع يقسم اللحم ويوزعه علينا. بدأ بالصينية الأولى فغرز سكينه في الفخذ اللدنة وقطع نسيرة من اللحم ووضعها في صحن زوجتي، ثم غرز السكين في الفخذ الأخرى وقطع نسيرة لمنى. واقتطع عمي بسكينه أجزاء من ربلة الساقين ووزعها على ليلى وبندق فابتهجا. ثم اتجه إلى الصينية الثانية فغرز السكين في الكبد فانبجس بعض الدهن مختلطًا بالمرق، ما أثار ضحكنا. وشق البطن عرضيًّا، ثم أخرج الأحشاء ووضعها في صحن إضافي، وقال:

ـ هذه حلويات لما بعد.

وابتسم. ثم خرق القلب بسكينه ومزق الضلوع وقسمها علينا أنا وابنه. وأخيرًا اتجه إلى الصينية الثالثة المفروشة بالبقدونس وفوقها استقر الرأس، وقال:

t.me/qurssan

ـ أما هذه فلي وحدي.

فضحكنا جميعًا. كان الرأس لامرأة شابة، لا يزال لون بشرتها ورديًّا، وزُرعت بصلة في فمها، أما عيناها فكانتا صافيتين، تبدوان كجوزتين. قالت هند بفخر إنها طلت الوجه بمزيد من الشحم حتى يحتفظ بحيويته. افتتح عمي الطعام بتناوله العينين من محجريهما، وأخذ يلوكهما بتلمظ. ثم انكببنا نلتهم ما في صحوننا.

بعد أن فرغنا من الطعام عادت هند إلى المطبخ لكي تصنع الشاي، وانبرت منى تنقل الصحون الفارغة من الطاولة إلى المطبخ، وتنظف ما تناثر فوقها من الدهن، واسترخى عمي على الكنبة. خالد قال إنه سيذهب للصلاة في المسجد ونزل. أما أنا فذهبت مع ليلى وبندق إلى غرفة التلفزيون وأخذنا نقلب القنوات، حتى عثرنا على قناة الكارتون. لم يهتم بندق بالكارتون وانهمك في اللعب بفردة حذاء، واتكأتُ أنا على الصوفا بجانب ليلى، وجلسنا نشاهد الكارتون، حتى ثقلت جفوني وتركت نفسي للنعاس.

عندما استيقظتُ كان التلفزيون لا يزال مضاءً، وكنتُ

t.me/qurssan

وحدي. تنقلت بين الغرف بحثًا عن الباقين، لكنهم كانوا قد تبخروا جميعًا. كان كل شيء في مكانه في البيت كما أعرفه، وعادت الحوائط إلى لونها المعتاد. ثم رجعت إلى الصالة فلم أعثر على الصوفا الجديدة، وإنما وجدت الكرسي القديم المواجه لشاشة التلفزيون، فأدركت أن الكابوس قد انقشع أخيرًا. وقفتُ وحيدًا وسط الصالة أصيخ السمع. لا أدري كم من الوقت مرَّ وأنا ثابت في مكاني أصيخ السمع حولي، ثم غادرت البيت. سرت في نسيم الليل الرقيق، ورأيت البيت الآيل للسقوط وقد استحال إلى أطلال وركام. حتى وصلتُ إلى الحديقة، وأدركت أن الوقت متأخر لأني لم أرَ أحدًا يسير فيها. واتجهت رأسًا إلى البقعة الرطبة، وألف عين وعين مفتوحة تحيط بي. كان المكان هادئًا، والهواء ناعمًا. أقعيتُ على الأرض وغرزت أظافري فيها فدخل الطين تحت جلدي. وأخذت أحفر بيديَّ السطح الموحل، ثم انكفأت على وجهي في الطين حتى لامست رطوبتَه وجنتاي، وأخذت آكل من أديم الأرض.

t.me/qurssan

غداء

غاصت موجات السعال في الطبقات اللانهائية لهواء الصالة حتى تناهت إلى أذنيها وهي في الغرفة الأخرى، فأفاقت وأضاءت النور وذهبت إلى الحمام وهي تقول في سرها: «لم ينَم هذه الليلة أيضًا». سعال الفجر ليس سعالًا جافًا كالذي يميز الصباحات، ولكنه سعال يشبه نحنحة باطنية متكررة، كأن صاحبه يتحايل عليه مزيحًا المركز الذي تنبع منه السعلة من الصدر إلى البطن، ليتحاشى أن تصطدم موجاتها بكتل البلغم التي في الرئة. اتجهتْ رأسًا إلى النافذة البعيدة ولم تلقِ نظرة على غرفته لتطمئن عليه، وجلست هناك في سكينة لا تتاح لها سوى في هذا الوقت من اليوم. خُيل إليها أنها سمعت صوتًا فأنصتت لعل سعاله يصل إلى أذنها مرة أخرى، ولمَّا لم تسمع شيئًا عادت إلى نفسها ودخلت الصلاة وهي جالسة. ثم فتحت المصحف وأخذت

t.me/qurssan

تقرأ فيه. ارتعش زجاج النافذة قليلًا، وغرد كروان بصوت رفيع في الأرض المجاورة. مرت عيناها المجهدتان فوق السطور، ثم سرح ذهنها بعيدًا. كانت تحاول التوازن بصعوبة على الأحجار الموضوعة على أطراف البركة الموحلة الموجودة في الطريق، عندما بزغ هسيس الأصوات الذي أصبحت تعرفه جيدًا. وسألتها الأصوات:

ـ إلى أين أنتِ ذاهبة؟

فأجابت بأنها عائدة إلى بيتها. تعالت جوقة الأصوات التي لا تراها في صخب، ثم هدأت حتى استطاعت تمييزها تقول:

ـ أتتركين قصرك وتذهبين إلى هذا البيت الضيق؟

رددت ذاهلة:

ـ قصري؟!

عادت جلبة الأصوات مرة أخرى، هسيس متراكب تتشتت موجاته ثم تعود فتتوافق، حتى سمعت:

ـ نعم، انظري.

وسرعان ما جفَّت الأرض واستوت صاعدة إلى قصر منيف. لم تصدق حين رأته، وسألت بصوت طفولي:

t.me/qurssan

ـ هذا لي أنا؟!

فأتتها الإجابة:

ـ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

فسألت عن صلاح وماجدة متلهفةً، لكنها لم تحظَ بإجابة. حتى تنفس الصبح فسقط رأسها لوهلة، فانتبهت من النوم وعادت إلى كتابها، وبقيت لحظة معلقة قبل أن تستأنف القراءة. ثم تهادت ابتسامة على صفحة وجهها، حل محلها سريعًا قلق وسؤال.

حين دفعت باب غرفته برفق وهي في الطريق إلى المطبخ بعد أن انتشر نور الصباح كانت حشرجات أنفاسه تملأ الغرفة المعتمة. وقفت تنظر من الفتحة الصغيرة، وقالت إن ميعاد الدواء قد حان. انتظرت قليلًا لتسمع ردًّا. وعندما لم تسمع شيئًا أعادت الباب إلى موضعه وذهبت، فيما بقي هو ممددًا على السرير. لم يكن نائمًا، لكنه لم يشأ أن يفتح عينيه. بعد أن ذهبت تطلع إلى العتمة وظل راقدًا، ثم بدأ كالعادة يراجع خطته التي دأب على التفكير فيها كل صباح. لم يكن تفكيره فيها كل يوم يزيدها تماسكًا أو إحكامًا، وإنما يزيدها تشويقًا، فالمباهج التي يمكن أن

t.me/qurssan

تسفر عنها والتي يكتشفها شيئًا فشيئًا كل صباح، لا تنتهي. خطته كانت ببساطة أن يغادر البيت ويعود إلى السبعينيات. سينتظر حتى تتزوج ماجدة ثم ينفذ خطته. سيبيع السيارة ويترك لزوجته جزءًا صغيرًا من ثمنها، أما باقي مصاريفها الشهرية فسيتكفل بها صلاح. بالتأكيد سيجد مشتريًا لسيارته القديمة، فحالتها معقولة، وبمجرد أن يقبض ثمنها سينتقل فورًا إلى بولاق أبو العلا حيث الحاج حسان تاجر «الكيوف» صديقه القديم، وحيث ترك السبعينيات ذات يوم لكي يسافر إلى السعودية ليعول أسرته. هذا الصباح أضاف إلى خطته أن يسكن غرفة صغيرة هناك ثم يعطي الحاج حسان ما يتبقى من ثمن السيارة ويطلب مشاركته في تجارته، وذلك بدلًا من صرفه نقوده كلها على الكيف والنسوان في حفلات ماجنة مع أصدقائه، كما تراءى له قبل ذلك في صباحات أخرى. في فضاء غرفته المعتمة رأى وجه الحاج حسان وهو يومئ له موافقًا على إسناد بعض المسؤوليات إليه مراعاةً للعيش والملح. في البداية ستكون مهمته اختبار الصنف وتسعيره، ومع الوقت وعندما يتأكد الحاج من إخلاصه لحياته الجديدة، سيسند إليه مسؤوليات أكبر. سيصبح مسؤولًا عن غُرز حي بأكمله، فيجلس متكئًا يدخن الجوزة ويأتيه الصبيان بِغَلة اليوم، فإذا لم تعجبه يهوي على أم رؤوسهم بعصاه.

t.me/qurssan

أو قد تُسنَد إليه مهمة استلام شحنة قادمة من الصحراء، فيخرج بعد منتصف الليل متسلحًا بمطواة قرن غزال إلى تخوم المدينة في سيارة نصف نقل يقودها سائق يعصب رأسه بلاسة ولا يتكلم. أما حياة الليل فستكون مليئة بالمباهج كما كانت آنذاك، ستبدأ الأمسيات بالجلوس مع الأوباش والتجار والزبائن للتدخين، ثم سيحلُّ وقت العربدة والصخب فيشربون البيرة الباردة ويأتون براقصات درجة ثالثة لإحياء حفلاتهم.

أحكمت وضع حبة الطماطم في راحة يدها اليسرى وغزتها بسكينة ذات شفرة ثلمة. كانت تخاف السكاكين ذوات الشفرات الحادة. قال صلاح إنه كاد يضل طريقه إلى البيت، وتساءل كيف تم بناء البرج الذي على ناصية الشارع بهذه السرعة. تساقطت قطع الطماطم داخل الطبق الزجاجي، بعضها مسلوخ الجلد، وبعضها تدلت منه قطعة جلد زائدة. قالت من دون أن ترفع عينها عن طبق السلطة وكأنها تحدث نفسها:

ـ لقد مضت على زيارتك الأخيرة شهور كثيرة.

راحت وجاءت في المطبخ، قلبت الشوربة وذاقت الخضار، ثم سألته عن زوجته. قال صلاح إنها بخير.

t.me/qurssan

ولم يخِب حدسه إذ سرعان ما جاءه سؤالها عن سبب عدم إنجابهما. فكر صلاح أن كل شيء تجمد في هذا البيت، حتى الحوارات تتكرر في أذنه إلى ما لا نهاية، كأنها مقتطفات من فيلم أبيض وأسود طويل. حاول الاحتفاظ بهدوئه وقال إنه قد أوضح لها سابقًا أنهما لا يرغبان في الإنجاب الآن، وأنه لا يريد الحديث عن ذلك اليوم. رمقته وسألت:

ـ هل زرتما طبيبًا؟

فجعَّد وجهه وقال:

ـ لا، ليس هناك ما يدعو لزيارة الطبيب، كل شيء على ما يرام.

أصرت قائلة:

ـ متى إذن؟

أجاب بتبرم:

ـ قريبًا إن شاء الله.

رددت خلفه بحسرة:

ـ إن شاء الله! ما علاقتك به حتى تتمنى مشيئته؟ لن تَرِد على جنة.

t.me/qurssan

زفر صلاح نادمًا على دخوله المطبخ، والتفتت هي إليه وقالت:

ـ أنت تكذب.

ثم أشارت إلى كتفه اليسرى وقالت وقد رفعت حاجبها وأخذت تهز رقبتها:

ـ أنت تعرف أنه جالس هناك ويكتب كل شيء.

فاندهش صلاح قائلًا:

ـ مَن؟!

فأجابت بنبرة مرحة:

ـ عتيد، الملاك المخصص لكتابة سيئاتك، هل نسيت؟

تأملها صلاح قليلًا وابتسم، وهي تابعت بصوتها الهادئ:

ـ هل تعتقد أن من السهل عليَّ أن أراكم من بيتي وأنتم تُقلَون في الجحيم وأنا لا أستطيع فعل شيء؟ هل تعتقد أني سأتحمل ذلك؟

قال صلاح:

ـ عن ماذا تتحدثين يا أمي؟

بدأ صوتها المرتفع يختلج تدريجيًّا وتابعت:

t.me/qurssan

ـ لن يُلَبوا رجائي في عتقكم من العذاب وسأبقى وحدي حزينة.

اندست ماجدة في حضن صلاح وأخذت تعاتبه لغيابه الطويل. وتأبطت ذراعه وسارا نحو غرفة الجلوس. سألته عن عمله، فروى لها أن وضعه قد تحسن في وكالة الأنباء حيث أصبح يعمل في قسم التدقيق. فتساءلت ماجدة عن طبيعة عمله الجديد، فأوضح لها أنه يدقق الأخبار التي تصله من المترجمين قبل بثها إلى الصحف وباقي وسائل الإعلام، وأن معظم الأخبار ذات طابع آنيٍّ إذ لا يخلو يوم من خبر عن فلسطين أو العراق، ثم هناك موضوعات الساعة مثل الحرب ضد الحوثيين، قراصنة الصومال، إنفلونزا الطيور، عملية إرهابية هنا مؤتمر دولي هناك، مسيرة الإصلاح والديمقراطية، مظاهرات، قمع، تعذيب، إلخ. شملته ماجدة بنظرة مرعوبة وأمسكت بيده وقالت له:

ـ لا بد أنه عمل صعب.

فقال لها:

ـ لا أبدًا، المرء يتعود بسرعة على الأنباء السيئة.

أخذت ماجدة تتطلع إليه ثم ابتسمت وهي تقول:

t.me/qurssan

ـ الحمد الله، لا توجد في عملي أنباء سيئة كثيرة.

اندهش صلاح وسألها:

ـ منذ متى تعملين؟ لماذا لم تخبريني؟

فقالت:

ـ لقد أخبرتك في التلفون، هل نسيت؟

نظر إليها صلاح ثم قال كاذبًا:

ـ آه صحيح تذكرت، لكن أخبريني بالتفاصيل.

فقالت إنها تعمل كمساعدة في جمعية خيرية، حيث تشرف على توفير لوازم ومتطلبات رعاية الأطفال من ملابس وألعاب ومواد تعليمية في حضانة ملجأ الجمعية. صمتا قليلًا، ثم سألها صلاح إذا كان العمل يروقها، فسرحت لوهلة ثم قالت إن العمل في الجمعية يريحها كثيرًا، ما إن تدخل المبنى حتى تشعر بسلام داخلي، كأنها على سجيتها، كم تكره العودة إلى المدينة عندما يحين وقت الانصراف، وتشعر أنها مضطرة أن تترك هذا النقاء لتنزل إلى الشارع وتخالط الوجوه الكاذبة والغشَّاشة والمخادِعة.

حان وقت الغداء فجلس الأربعة حول طاولة الطعام.

t.me/qurssan

قامت ماجدة بفرد أوراق الجرائد ثم غرفت الشوربة، وأخذ كل منهم يرتشف من صحنه صامتًا. ابتسم الأب وقال:

ـ تسلم إيديكِ.

فابتسمت الأم هي الأخرى بحسرة وقالت:

ـ بالهنا والشفا.

سأل صلاح ماجدة عن عريسها، فأجابت بأنها لا تعرف بعد فهي لم ترَه سوى مرة واحدة، فسألها عن انطباعها، فقالت:

ـ إنه طويل، هذا كل ما أذكره.

ضحك صلاح وتطلع إليها بفضول، وكانت هي تنظر إلى صحن الأرز. تدَخل الأب وسأل:

ـ هل كان هناك قبول؟

فكرت ماجدة قليلًا وقالت:

ـ لا أعرف.

فتبرم من إجابتها وأردف:

ـ ما معنى «لا أعرف»؟ هذه أشياء يشعر بها المرء فورًا. إما أن يشعر بوجود قبول أو لا يشعر بوجوده.

t.me/qurssan

وكانت الأم صامتة طوال الوقت تفكر في السؤال الذي يشغلها منذ الصباح، غير أنها قررت الآن وضعه جانبًا والمشاركة في الحديث، فقالت لماجدة:

ـ عليكِ أن تكفي عن استهتاركِ وتُفكري بجدية، لم تعودي بنتًا صغيرة، لقد تجاوز عمركِ الثلاثين، أخوكِ الأصغر تزوج ولم يبقَ سواكِ.

لم ترفع ماجدة عينيها عن صحن الأرز وأخذت تمضغ ببطء. قال صلاح إنه يتمنى لو تمم الله بخير هذه المرة، لأنه سيكون مشغولًا جدًّا الفترة القادمة ولن يستطيع الانتظام في زياراته. شعرت ماجدة بأن أعين الثلاثة مصوبة نحوها. حاولت قدر الإمكان التماسك، واستبسلت في ترميم التصدعات، ثم زاغ بصرها ولم تعد ترى طبقها جيدًا، فرفعت عينيها المحمرتين عن الطبق وقامت وهي تشهق. تطلع إليها صلاح وهي تختفي في الصالة، ثم خيم الصمت على الجالسين، وتابع الثلاثة مضغ ملاعق الأرز المخلوطة بالخضار واللحم.

خلال النهار كانت خطته تتوارى حتى تبدو كأنها حلم بعيد. تتبخر مباهجها الأسطورية، ولا يتبقى سوى هيكلها العظمي: بيعه للسيارة، مغادرته عالم البيت، ودخوله عالمًا

t.me/qurssan

آخر. السيارة البيجو البيضاء هي الجزء الأكثر مادية في خطته الضبابية، بل في حياته كلها، ففيها يتركز كل ما خرج به من حطام الدنيا بعد سنوات الخليج الطويلة. عندما كان يتحدث مع زملاء الغربة الذين عادوا واستقروا مثله يستعجب من كثرة ما أصبحوا يمتلكون. أحدهم يمتلك عمارة، والآخر عزبة، والثالث عددًا من سيارات الأجرة. أما هو فلم يخرج سوى بسيارة بيجو ستيشن بيضاء، اشتراها وعاد بها سائقًا عبر الصحراء بعد نهاية عقده، وكانت هي التي تنقله إلى الحاج حسان في زياراته المتفرقة التي سمحت له الأيام بها، وساعدته في ممارسة وظيفته كرَب أسرة عندما كان يقضي المشاوير العائلية بها. أما البيت فهو لهم وليس له. حتى أشياؤه يعبثون فيها ولا يتركون شيئًا في حاله. وعندما يعاتبهم يتهمونه أنه يبالغ. وعندما يقول لهم إنه يحتاج إلى مربع خاص به لا يَقربه أحد، يقولون له إنه أصبح يهوى الخِناق. وعندما يدعوهم للذهاب في نزهة لمصالحتهم يرفضون بدعوى أنه يفسد الطريق دومًا بافتعاله المستمر لمشكلات يكون فيها الجميع على خطأ وهو وحده على صواب. لا أحد أصبح يحب الكلام معه، وإذا جلس معهم يتوترون ثم ينسحبون ببطء، وهو زهد في الكلام معهم، وفي الكلام مع زملاء الغربة. ستقوم البيجو البيضاء الطيبة إذن بمشوارها الأخير، وتعيده إلى

t.me/qurssan

حيث ينتمي، وحيث يجد أناسًا آخرين يحادثهم، ضائعين مثله، مجرمين، أوباشًا، فاشلين، بعيدين عن هذا الخراب، ليقضي باقي أيامه معهم.

ضغطت ماجدة على زر يحمل إشارة موجب في جهاز الريموت كونترول، فتلاشت الصورة في ثانية وحلت محلها صورة عمرو خالد على شاشة التلفزيون ماركة «ناشيونال»، وأخذوا يتفرجون. كانت ماجدة تبتسم وتتمتم من حين لآخر، أما هي فكانت تتابع ساكنة. بعد انتهاء الحلقة ضغطت ماجدة مرة أخرى على زر الموجب فظهرت شيرين على قناة روتانا للأغاني، فتابعوا الفرجة وهم يشربون الشاي. سألت ماجدة صلاح إذا ما كان يرغب في مشاهدة شيء آخر، فلم يعرف، فتنقلت بين القنوات حتى وصلت إلى محطة تعرض فيلم «بطل من ورق» فتوقفت عندها. كان ممدوح عبد العليم يندب حظه لكتابة ذلك السيناريو المشؤوم وآثار الحكيم تقنعه بضرورة أن يعملا معًا لإيقاف القاتل أحمد بدير. ثم جاء صراخه من بعيد مشتكيًا من صوت التلفزيون المزعج وعدم قدرته على التركيز. تنهدت هي وطلبت من ماجدة أن تخفض مؤشر الصوت ففعلت. عاد صراخه من جديد

t.me/qurssan

ممزوجًا بسعال جاف وأخذ يقول إنه لا أحد في هذا البيت يحترم كلمته، ثم اقترب الصراخ حتى دخل صاحبه الغرفة وعيناه ذاهلتان وقال:

ـ أنا لا أزال أعيش في هذا البيت، هل فهمتم؟

أغمضت عينيها لوهلة ثم قالت:

ـ لقد خفضنا الصوت.

فصاح:

ـ لا لم تفعلوا، إنكِ تهزئين بي.

أشاحت ببصرها وانفجرت قائلة:

ـ بل فعلنا، عليك إذن أن تركب سماعة أُذن.

عاد يصرخ:

ـ ماذا قلتِ؟

فنهضت فجأة بجسمها الخفيف رغم أعوامها الستين وانتزعت الريموت من ماجدة وضغطت على زر أحمر وصرخت بصوت متحشرج تسأله إن كان يشعر بالراحة الآن، فخرج من الغرفة وصفق الباب خلفه بشدة حتى إن الجزء الزجاجي العلوي من الباب أصيب بشرخ، وقذفت هي بالريموت تجاه الباب المغلق فانفرطت

t.me/qurssan

بطاريتاه وارتطم بالأرض بشدة. نظر صلاح ذاهلًا إلى أمه، وقالت ماجدة إنها ستذهب لتصلي. وظل صدى صفق الباب وارتطام الريموت يتردد في صمت غرفة الجلوس التي بقي صلاح جالسًا فيها مع أمه وحدهما. ثم قام صلاح وجمع البطاريتين وباقي جسم الريموت وثبتهما في مكانهما واضعًا فوقهما اللسان البلاستيكي الصلب، لكنه اكتشف وهو يقلب الريموت في يده أن الجزء الأمامي الخاص بإرسال الأشعة قد فُقد. في هذه اللحظة توصلت هي إلى إجابة عن السؤال الذي كان يشغلها منذ الصباح، إجابتها كانت أنها ستسمح له بزيارتها أحيانًا في قصرها، لكنها لن تسمح له أبدًا بالبقاء فيه.

عندما عادت ماجدة إلى غرفة الجلوس، كان صلاح وحده ينظر إلى النافذة، وكانت أمه قد خرجت. قال لها صلاح:

ـ أنا لم أرَ أمكِ على هذه الحال من قبل!

فقالت له:

ـ أنت لم تعد تأتي كثيرًا. زمان كانت أمك تسكت، أما الآن فأصبحت تتعصب مثله، فلا يكفَّان عن العراك كلما

t.me/qurssan

التقيا، لذلك يتحاشيان أن تتقاطع طرقهما في البيت كلما أمكن، ويُفضل كلٌّ منهما البقاء في ركنه.

ثم تطلعت إلى جهاز التلفزيون المطفأ وتابعت:

ـ لقد أصبح بيتنا بيت مجانين. تخيلْ أنها تفكر في تزويجه! عندما نجلس أنا وهي وحدنا تقول لي إن نور الشريف قد طلَّق بوسي بعد زواج طويل وتزوج بأخرى. ثم تقول إنها تبحث عن عروس، فالأفضل واحدة تعرفها خير من أن يتزوج واحدة لا تعرفها.

تنهد صلاح وسألها إذا كانت تعتقد حقًّا أنه يرغب في الزواج وتركِ البيت. فقالت ماجدة:

ـ لا أظن أنه يريد الزواج، وإنما يريد أن يُترك وحده. أكثر من مرة كنا نعود من السوق فنجده يدندن في المطبخ وهو يغلي قهوته، وما إن يرانا حتى يتوقف عن الدندنة ويتجهم، إن وجودنا أصبح يشكل عبئًا عليه لا يستطيع تحمله.

ثم صمتا قليلًا حتى قالت ماجدة:

ـ أصبحت أشعر بالخوف من البقاء في البيت، ففي كل لحظة يمكن أن ينشب عراك وصراخ لا ينتهيان. وكلما تعاركا لا أعرف ماذا أفعل فأدخل غرفتي وأغلق على نفسي وأظل أبكي حتى يهدآ، لماذا يحدث كل هذا؟

t.me/qurssan

فقال صلاح:

ـ لا تخافي، والداك كبرا ويجب أن نراعيهما قليلًا، هذا كل ما في الأمر، لا تقلقي لا شيء سيحدث.

في اللحظة التي كان صلاح يمر فيها أمام باب غرفته القديمة نصف المفتوح داهمه شعور عميق بأن ذلك العالم الذي يسكن الغرفة أصبح موقعه على الضفة الأخرى، وأن هذه الهمسات التي كانت تسحره سابقًا وتدعوه إلى دخول عالم الماضي قد فقدت قدرتها على الإغواء. وقف لوهلة أمام غرفته التي تسكنها الآن ماجدة، ولمح جزءًا من الكوميدينو القديم وسِلك جهاز التسجيل الذي كان يسمع عليه الموسيقى، وانتشرت في أذنه بسرعة موجات متراكبة لشرائطه الموسيقية المفضلة، مختلطة بأصوات إذاعة «مونت كارلو» والبرنامج الثاني، التي كان يذاكر دروسه عليها، وعبثًا انتظر أن يستجيب شيء ما بداخله لهذه الأصوات والإشارات. لم يدفع باب الغرفة ليكمل فتحه، ذلك الباب الذي ظل لسنوات طويلة يشكل حدود عالمه الداخلي. فقط وقف قليلًا، ولمَّا لم ينادِه شيء، أكمل طريقه إلى الغرفة الأخرى التي يسكنها الآن أبوه، وهو يشعر بأنه لم يعد الشخص نفسه. لقد أصبح شخصًا

t.me/qurssan

لا يربطه بالشخص الذي سكن غرفته القديمة سوى شيء محايد يشبه صلة الرحم.

وقف صلاح بجواره في البلكونة الصغيرة وأعطاه سيجارة. كان تواطؤه مع أبيه ضد حظر التدخين الذي فرضه الأطباء يُشعره بالقرب منه. صرخ الأب في رجل يشعل إطار سيارات في الأرض الخراب وراء البيت، ثم سعل سعلة جافة وهو يتمتم: «يا ولاد الكلب، يا بهايم». أخذا يدخنان وهما يتأملان الأرض التي تحولت إلى أرض خراب يملأها الهدد ومخلفات البناء وأطنان من القمامة. سأل الأبُ صلاح وهو يسعل بشدة إن كان يتذكر تلك الأرض عندما كانت لا تزال أرضًا تُزرع. وأجابه صلاح بأنه يتذكر ذلك بالطبع، فلقد كان يحب اللعب بين أحواض البرسيم وهو طفل. وضحك أبوه قائلًا إنه كثيرًا ما كان يضل طريقه بسبب قِصر قامته آنذاك وطول أعواد البرسيم، لكن حارس الغيط كان يحضره إلى البيت كل مرة. أمَّن صلاح على كلام أبيه وابتسم متذكرًا عم سعد وقال:

ـ كدت أنساه، كان رجلًا طيبًا من قنا، ظل يدعوني إلى الشاي كلما مررت به بعدما كبرت وأصبحتُ طويلًا.

مرت فترة ثم سأل صلاح أباه:

t.me/qurssan

ـ هل سمعت شيئًا بخصوص المعاش؟

ـ قالوا لي في الوزارة إنه لا يوجد معاش كما توقعت، لأن مدة خدمتي في المدرسة بعد عودتي من السعودية أقل من أن تُحتسب.

ـ لا عليك. أنا أعمل الآن ودخلي معقول.

ـ ...

ـ وماذا تريد أن تفعل الآن؟

ـ لقد اكتشفت أنني لم أفعل ما أريده في حياتي قَطُّ.

تأمل صلاح وجه أبيه، وحاول تخيُّل الحياة التي يريدها الآن، ثم طافت في ذهنه الفكرة التي طالما حام حولها، وطالما هرب منها، فكرة انهيار البيت. هذه المرة ليس كهاجس وإنما كخطر حقيقي ملموس، فجزع بشدة، وشعر بخوف مفاجئ لم يكن يعرف بوجوده.

قال صلاح:

ـ كان بإمكانك بدء حياة جديدة قبل عشر سنوات يا أبي، وما كان أحد سيلومك ساعتها، لكن الآن؟! لقد تأخرت كثيرًا، إن صحتك أصبحت معتلة، وأمي كبرت في السن.

t.me/qurssan

أعرف أن مشكلاتكما لا تنتهي، لكن هذه هي حياتكما التي صنعتماها بأيديكما ويجب أن تقنعا بها.

فقال أبوه:

ـ لا تشغل بالك أنت، كل شيء سيكون على ما يرام.

عندها احتدَّ صلاح وقال:

ـ بالطبع يجب أن أشغل بالي. ماذا سيقول الناس عنا؟ ماذا ينقصك؟

تردد أبوه في الحديث عن خطته ثم قال:

ـ كنت أفكر أني لو تركتُ البيت مؤقتًا ستهدأ الخلافات.

فواصل صلاح انفعاله وقال بصوت عالٍ:

ـ إلى أين تريد أن تذهب؟ أَخرِج هذه الفكرة تمامًا من رأسك. هذا البيت يجب أن يبقى مفتوحًا. راعِ سنك وصحتك.

نظر الأب إلى ابنه وأراد أن يقول له إن صحته في الحقيقة جيدة جدًّا، وإنه «طز» في المبلغ الذي يدفعه للبيت كل شهر، وإن عليه أن يكبر أخيرًا ويفهم الدنيا، وإنه لم يسبق أن تحدث معه بصوت عالٍ هكذا، لكنه سكت طويلًا ثم قال:

t.me/qurssan

ـ معك حق.

غاصت موجات السعال في الطبقات اللانهائية لهواء الصالة حتى وصلت إلى أذنها وهي في الغرفة الأخرى. فأفاقت وأضاءت النور وذهبت إلى الحمام. كانت كتلُ البلغم الأخضر تسبح في هواء الصالة. لم تلقِ نظرة على غرفته لتطمئن عليه، وإنما اتجهت رأسًا إلى النافذة البعيدة وجلست جوارها في سكينةٍ لا تتاح لها سوى في هذا الوقت من اليوم. خُيل إليها أنها سمعت صوتًا فأنصتت لعل سعاله يصل إلى أذنها مرة أخرى، ولمَّا لم تسمع شيئًا عادت إلى نفسها ودخلت الصلاة وهي جالسة. ثم فتحت المصحف وأخذت تقرأ فيه. ارتعش زجاج النافذة قليلًا، وغرد كروان بصوت رفيع في الأرض المجاورة. مرت عيناها المجهدتان فوق السطور بينما سرح ذهنها بعيدًا. هذه المرة كانت متأكدة أنها سمعت شيئًا، سمعت حفيفًا، ثم سمعت رفيفًا. فنظرت حولها وابتسمت. ثم سمعت الهسيس الخافت يصدر من كافة أركان غرفة الجلوس. ميزت بينه أصواتًا كثيرة تقول لها:

ـ تعالَي معنا.

فضحكت وقالت للأصوات:

t.me/qurssan

ـ ما الذي تقولونه يا أعزائي! أنتم تعلمون أنني لا أستطيع ترك بيتي.

فهمست لها الأصوات:

ـ زورينا مرة واحدة، سوف نقضي معًا وقتًا طيبًا.

فقالت:

ـ كم بوُدي، لكني لا أستطيع يا أعزائي.

سكتت لوهلة وأنصتت للهسيس الذي أخذ في الاصطخاب، فأمرتهم بالهدوء، فخفتت الأصوات وأخذت وتيرة منتظمة. ثم ركزت فيما تسمعه وقالت:

ـ ماذا؟ تريدون أن أذهب معكم لكي أرى قصري لليلة واحدة وأعود؟ والجميع سيكون موجودًا هناك؟ لكني لا أستطيع يا أعزائي.

وبقيت مطرقة بعض الوقت وحاجباها مقطبان، ثم تهادت أخيرًا ابتسامة على صفحة وجهها.

ـ آلو، صلاح؟

ـ أيوه يا ماجدة.

ـ أمك تركت البيت يا صلاح.

t.me/qurssan

ـ ماذا تقصدين؟ أين ذهبت؟

ـ لم أجدها عندما استيقظتُ أمس، ولم تعد حتى اليوم.

ـ ماذا؟

ـ لقد سألت عنها عند خالتك، وعند زوجة عمك، لكنها لم تكن هناك.

ـ هه؟ وأين أبوكِ؟

ـ في غرفته ولا يريد أن يخرج.

ـ ...

ـ ...

t.me/qurssan

t.me/qurssan

مياه جوفية

(١)

ذهبتُ إلى الحديقة المقابلة لمنزل «سونج»، وجلست برأس معصوب فوق أحد المقاعد الخشبية لأراقب مدخل بيتها. من حين إلى آخر أتطلع إلى نافذتها في الطابق الثالث ثم أُنزل ناظريَّ إلى الأرض. كنت لا أزال أبصق دمًا وأنا جالس، إلا إن موجات الصداع التي تضرب برأسي تراجعت كثيرًا. آخر مرة رأيت فيها «سونج» كنا مستلقيين فوق سريرها، تتناهى إلى أسماعنا من النافذة أصوات أطفال يلهون في الخارج. كنتُ أتطلع إلى الثعلب المرسوم على الحائط، عندما اتكأتْ هي على مرفقها وحدقت إليَّ وأنا ملقى على ظهري. تطلعتُ إلى عينيها المسحوبتين وأخذت أراقبهما وهما تصفوان شيئًا فشيئًا،

t.me/qurssan

حتى أصبح بياضهما ناصعًا وسوادهما حالكًا. ابتسمتُ لها، لكنها بقيت ساكنة. ثم أخذت نظراتها تزداد حدة ورهافة، وجعلت تنفذ بهدوء إلى أعماقي، حتى إني شعرت بوخزة في صدري، فرفعت جذعي لأصبح في مواجهتها لعلِّي أتقي نظرتها تلك التي لا أعرف لها سببًا. بقينا هكذا يتطلع أحدنا إلى الآخر، وشعوري بالضياع التام أمام هاتين العينين الصافيتين يتعمق بمرور الوقت. ثم أخذت عيناها تتسعان، وكست وجهها أمارات الرعب والهلع. وأخيرًا قالت لي بجدية ومن دون أن تغير موضعها:

ـ عليك أن ترحل الآن.

بقيت حائرًا أتطلع إليها منتظرًا أن تقول شيئًا آخر، لكنها لم تفعل. كان ذلك قبل عام.

لم أرَ «سونج» بعد ذلك اليوم الذي طردتني فيه من بيتها، فقد توقفتْ عن الرد على مكالماتي ورسائلي، ولم تعد تأتي إلى المدرسة. لكن نظرتها تلك بقيت مرشوقة في رأسي كالسكين، رغم كل الصدمات التي قلبت حياتي رأسًا على عقب في العام الماضي. وكلما هبطت من درك إلى درك في طريق سقوطي الطويل كانت نظرة «سونج» النافذة تلك تلوح لي كنبوءة تتحقق على مهل.

t.me/qurssan

خلال العام الذي مضى، قررت هبة أن تتركني وتعود إلى القاهرة مع طفلنا يوسف مُنهيةً منحة رسالة الدكتوراه قبل إتمامها، بينما قررت أنا أن أبقى في برلين. خلال الأشهر الثلاثة الأولى بعد رحيل هبة كنت أهيم على وجهي في المدينة بصحبة دراجتي. أطير خفيفًا فوقها رغم ثقل قلبي، وأتابع الأشياء وهي تنفلت من حولي، ومن ورائي كرسي يوسف الفارغ المثبت فوقها. تضيق فتحتا عينيَّ فلا أرى سوى لمحات جانبية من الوجوه، والمباني، والشوارع. لا أعرف أحدًا ولا أحد يعرفني، والطريق أمامي طويل لا ينتهي. عندما أعود في المساء مجهدًا إلى بيت حاتم الذي استضافني عنده في تلك الفترة، أجده قد أعدَّ عشاء خفيفًا فأجلس لنأكل معًا. يجاذبني أطراف الكلام ويحكي عن يومه، ثم يسألني عن حالي، ويسعى لإقناعي بالعودة إلى القاهرة لألتحق بهبة ويوسف، فلا أقول له شيئًا، ثم أستلقي على الصوفا وأحملق في السقف.

عشتُ نحو عامين مع هبة ويوسف في شقة في ضاحية دالم الهادئة، تقع في الطابق الأرضي، وتطلُّ على حديقة صغيرة. وقع اختيارنا على هذه الضاحية لأنها قريبة من الجامعة التي تُعِد فيها هبة رسالة الدكتوراه، واستفدنا من

t.me/qurssan

عروض الشقق التي وفرتها الجامعة هناك للباحثين فيها. وسرعان ما عثرنا على حضانة قريبة من البيت ليوسف. كنت أحب شقتنا تلك كثيرًا، إذ لم يسبق لي أن سكنت مكانًا به حديقة. وكانت بها مدفأة جميلة يمكن إشعال الحطب بها كما يحدث في الأفلام. حاولنا أن نستخدمها ذات مرة لكننا كدنا نختنق، فاكتفينا بها كقطعة ديكور غريبة، نأخذ صورًا بجوارها ونحن نتصنع الأرستقراطية، واستعضنا عن دفئها بالتدفئة المركزية التي كانت متاحة أيضًا في الشقة. كذلك أحببت الضاحية رغم بعدها عن المدينة، فالاقتراب من الطبيعة كان تجربةً جديدة بالنسبة إليَّ.

وصلنا إلى دالم في فصل الشتاء. وفي أوائل تمشياتنا للتعرف على المكان، اكتشفنا أن الضاحية متاخمة لغابة تدعى الغابة الخضراء، فذهبنا لزيارتها، ورأينا لأول مرة أشجار السنديان العالية تقف في الغابة عارية من أوراقها، ومكسوة بطبقة من غبار الثلج. سرنا وسط الأشجار كالمسحورين حتى وصلنا إلى بحيرة صغيرة كانت محتجبة. كان الناس يتمشون حولها فوق الثلج، ومعهم أطفالهم وكلابهم. لكن شيئًا ما كان غريبًا في

t.me/qurssan

هذا المشهد، فقد كانت كل هذه الحركات بطيئة بفعل الثلج، كما أن الأصوات كانت تأتي من بعيد، كأنها تمر عبر طبقات قطنية سميكة، بفعل الثلج أيضًا، ويحدث أحيانًا أن تنقطع الأصوات فيحل محلها صمت كثيف على البحيرة، صمت لم أسمع مثله من قبل. كان سطح البحيرة متجمدًا ومصقولًا، ولا أحد يسير فوقه. ورأينا تنبيهات بِلغات متعددة حول المكان تحذر من السير فوق جليد البحيرة في أوقات الشتاء، لأن البحيرة عميقة، والطبقات السفلى فيها تبقى سائلة، لذلك يمكن أن يكون السطح المتجمد هشًّا في بعض المواضع، ويمكن أن يتشقق مؤديًا إلى سقوط من يسير فوقه. سقوط وصفَتْه التحذيرات بأنه مُهلك.

عندما سألتني هبة عن رأيي في المنحة وفكرة الذهاب إلى برلين من أجل العيش لمدة سنتين تحمست على الفور، فلم يكن عملي في مكتب المحاسبة في القاهرة يسير بشكل جيد، كما أن صلتي كانت قد تراخت بمعظم أصدقاء الجامعة، إذ انشغل كل منهم بحياته، فكانت حياتي تدور حول المكتب وهبة ويوسف المولود حديثًا والزيارات العائلية فقط، لذلك لم يكن قرار السفر صعبًا.

t.me/qurssan

وأخذنا نعدُّ أنفسنا بسرعة، وسارت إجراءات الحصول على الفيزا بسلاسة غير متوقعة. لم أكن أعرف شيئًا عن هذه المدينة سوى المعلومات العامة التي يعرفها الجميع: حائط برلين، الحرب الباردة، هتلر، النازية، إلخ. حتى عندما وصلنا إلى برلين لم ألمس في نفسي اهتمامًا كبيرًا بمعرفة الكثير عنها، كما لم أكن أنتظر منها الكثير من المفاجآت أو الاكتشافات. كنت فقط سعيدًا بخروجي من القاهرة وضغطها الخانق، فكنت أقضي يومي في برلين في القيام بمهمات المنزل العادية. يوم السبت أذهب مع هبة ويوسف إلى المركز التجاري من أجل التسوق. يوم الأحد نتنزه في الغابة. وخلال الأسبوع أذهب كل صباح لأوصل يوسف إلى الحضانة، ثم أتمشى قليلًا في طريق عودتي حول البحيرة، أستمع إلى شقشقة الطيور في الصيف، وإلى صوت انضغاط الثلج تحت حذائي الثقيل في الشتاء.

لاحظت أن هناك حركة خلف نافذة غرفة «سونج» في الطابق الثالث. لكني عندما دققت النظر أدركت أن ما رأيته كان انعكاس أغصان الشجرة المقابلة على زجاج النافذة. حتى لو كان ما رأيته هو «سونج» نفسها، فلا طائل

t.me/qurssan

من دق جرس بابها، لأني أعرف جيدًا أنها لن تَرُد. في ذاك اليوم البعيد كنت أقف أمام النافذة نفسها لكن من الناحية الأخرى، أتطلع إلى الحديقة التي أجلس فيها الآن، إلى أن وقفت «سونج» بجواري أمام النافذة وأمسكتُ بيدها. في هذا اليوم نمت معها للمرة الأولى، والأخيرة. احتضنتها من دون أن نتحدث، واتجهنا إلى الفراش. ارتكزت على ركبتيَّ خلفها وهي راكعة أمامي، وحاولت أن أُدخل عضوي فأخطأت طريقي، ثم أعدت الكرة فأخطأت مرة أخرى. في هذه اللحظات كان عضوي يتحسس طريقه على لحمها كأعمى. فمدت «سونج» أناملها من دون أن تدير رأسها المرتاح على الوسادة وأمسكت به وأدخلته بين فخذيها. تحركت داخلها مستثارًا من نعومة إليتيها كلما لامستا لحم بطني. وعندما اقتربَت من نشوتها، ازداد توتر خاصرتها بين يديَّ، ثم تقوَّس ظهرها لوهلة في نبضتين متتاليتين، وتفرق شعرها حول رأسها المرتاح على الوسادة. وبعد أن استلقينا على الفراش لبعض الوقت، سددت لي تلك النظرة التي اخترقت صدري إلى الأبد، ثم طردتني من بيتها.

t.me/qurssan

(٢)

استمرت لامبالاتي المبدئية بالمدينة، إذ لم يكن هناك ما يلفت انتباهي فيها، فهي مدينة كبيرة تشبه غيرها من المدن الكبيرة، باستثناء أمر أثار اهتمامي، ألا وهو هذا الصمت الذي يلف ضاحية دالم. كان هناك شيء غريب يتخلل الضاحية الهادئة، وينفذ إليَّ. أرجعت هذا التأثير في البداية إلى عدم تعودي الهدوء بعد أن عشت عمري كله في صخب القاهرة، أو إلى القرب المفاجئ من الطبيعة الذي لم أعهده أيضًا. لم أعرف قَطُّ سبب وقع الضاحية عليَّ، لكني كلما سرت في طرقاتها وتوغلت في غابتها شعرت بأن شيئًا ما يسحبني إلى عالم آخر لا أعرف عنه شيئًا. وبعد أسابيع من إقامتنا في برلين أثار انتباهي أمر آخر، وهو إقبال الناس فيها على استخدام الدراجات. ولاحظت أن الشوارع الأسفلتية تتضمن في العادة حارة مخصصة للدراجات. كانت الدراجة مرتبطة في ذهني بالطفولة أو بالذهاب إلى المصيف، فبدت لي برلين فجأة مدينة يعود فيها المرء إلى طفولته. وازدادت مع الوقت رغبتي في أن أقود دراجة أنا الآخر، فقد كنت أحب ركوب الدراجات كثيرًا وأنا صغير. أما

t.me/qurssan

هبة فلم تكن تهتم بالدراجات، وكانت تسمع تعليقاتي حول الدراجات التي تسير حولنا عندما نخرج للتنزه بنصف تركيز، ومن حين لآخر تُعلق قائلة إن من يحتاج إلى دراجة بالفعل هو يوسف. وبينما كنا نتسكع في يوم سبت بين معروضات سوق الأغراض المستعملة في الحي مررنا برجل يعرض دراجة. حاولت أن أسأل الرجل عن السعر، وتبرمت هبة وقالت لي:

ـ عجلة إيه بس؟

لكني حسمت أمري وقفزت فوق الدراجة لتجربتها، وغمرتني السعادة كطفل صغير. أخطأت قدماي موطئ البدال في البداية، وجنحت مني الدراجة يمينًا ثم يسارًا، حتى استويت على المقعد، وتمكنت من المقود، وقدت الدراجة في دائرة حول موضع البائع. كان يوسف يتطلع إليَّ ويصرخ من الإثارة. وأنا أشعر بالهواء يمر على وجهي. عدت إلى موضع البائع ثم أخذت أتفحص سلسلة الدراجة وتُروسها، وقلت لهبة مبتسمًا إنها دراجة جيدة، وبها أيضًا كرسي خلفي ليوسف، فنظرت إليَّ هبة واجمة، ثم تغير وجومها إلى ابتسامة، وأنقدت البائع ثمن الدراجة، فقبَّلتها لأول مرة في مكان عام.

t.me/qurssan

كانت هبة تبدأ يومها في السابعة عادةً، تذهب إلى الجامعة لتلتقي مشرفتها، ثم تجلس في المكتبة طيلة الظهيرة. وفي يومَي الاثنين والأربعاء تلتقي آخر النهار زملاءها في مشروع مجلة «ديوان». أما أنا فكنت أقضي معظم فترة النهار مع يوسف باستثناء الساعات الأربع التي يذهب فيها إلى الحضانة. نجلس معًا في المنزل، ثم أذهب به إلى الحضانة. وبعد الظهر أذهب لأحضره من هناك ويرافقني في تمشية أو إلى مشوار يتعين عليَّ أن أقضيه. هنا في برلين نَمت لغة يوسف الخاصة، فكلما كبر زاد تنوع الأصوات التي يصدرها من حلقه، حتى أصبحت تلك الأصوات لغة لا يفهمها سواه بعد أن أصبح عمره عامًا ونصفًا. بل إنه قد يثرثر أحيانًا لساعات طوال بتلك اللغة، مصحوبةً بحركات من اليدين والوجه. كل ما يقوله مفهوم بالنسبة إليه، لكنه بالنسبة إليَّ كان كلمات سحرية تشبه كلمات أعرفها، فكنت أتعجب كيف تنمو اللغة من بين ذلك السديم الصوتي. ولم يُفسد عدم فهمي لما يقوله استمتاعي بالوقت الذي نقضيه معًا، بل كنت أرتاح لطريقة تواصلنا غير المبنية على الفهم المتبادل، فعندما يستيقظ صباحًا وينهي جولة تفقده لألعابه يجلس أمامي ليخبرني بشيء لا أعرفه، ربما كان يحاول أن يروي لي حلمه، أو ربما

t.me/qurssan

يقترح القيام بلعبة جديدة، وأنا أصغي إليه وأقول بضع كلمات مستفهمًا أو موافقًا.

أول كلمة نطق بها يوسف كانت كلمة «كلاين» الألمانية. فذات يوم كنا نجلس في المطبخ ونعد العشاء لزملاء هبة في الجامعة الذين دعتهم، ويوسف يلعب أمامنا بحصان وفيل محشوَّين وهو يثرثر بكلام كثير بلغته التي لا يفهمها سواه. انهمكتُ في تقطيع البصل إلى شرائح رقيقة للسلطة، أما هبة فكانت تباشر تقليب الخضار على النار، وهي تحكي عن الحوار الذي دار بينها وبين مشرفتها. تطرق الحديث كالعادة إلى السياسة، وتحديدًا غزو العراق، ودافعت المشرفة عن اقتراح إقامة كونفدرالية في العراق، فردَّت عليها هبة بأن سبب الوضع الكارثي هو الغزو وليس الصراعات العرقية، فالعراق يغرق في مستنقع الحرب الأهلية يومًا بعد يوم، لأن المسؤولين عن الغزو لم يضعوا في حسبانهم الفراغ الذي سيحدثه إسقاطهم صدام حسين عندما بدأوا غزوهم. ثم تطلعت إليَّ هبة وقالت:

ـ أنا مش فاهمة الغرب ده عايز إيه. يعني نشيل ببساطة العراق من على الخريطة، ونحط حاجة اسمها اتحاد

t.me/qurssan

كونفدرالي بيحكمه أراجوزات؟! العراق بيضيع قدام عينينا واحنا مش عارفين نعمل حاجة.

كنتُ أستمع إليها وأنا أقشر الجزر، ثم أقطعه إلى أصابع قصيرة. عندها التفت إلينا يوسف فجأة وقال:

ـ كلاي. كلاي فيد. كلاي فيد.

لم نفهم في البداية ماذا يقول، ثم انتبهت هبة وأصغت قليلًا وقالت:

ـ إيه ده؟! يوسف بيتكلم ألماني.

وتركت ما في يدها واحتضنت يوسف، وهي تقول له:

ـ قول تاني كده يا يوسف.

وخمنت هبة أنه كان يلعب في الحضانة بالحصان، وأنه سمع كلمتَي «كلاين بفيرد» من المربية، أي «حصان صغير»، فالتقطهما. تطلعَت إليه وهو بين ذراعيها وقالت وهي تضحك:

ـ أول ما تتكلم تتكلم ألماني، قول حصان كده. هوصاان.

صرخ يوسف من السعادة وردَّ عليها بكلام كثير لم نفهم منه شيئًا. حتى دق جرس الباب معلنًا وصول أول الضيوف.

t.me/qurssan

على مائدة العشاء روت الدكتورة سهام أن امرأةً في المترو طلبت منها اليوم أن تقوم من مكانها لكي تجلس فيه امرأة مسنة، فسألت المرأةَ عن سبب توجيهها هذا الطلب لها هي بالذات دونًا عن باقي الجالسين، فقالت المرأةُ إن مقعد سهام هو مقعد مخصص لذوي الاحتياجات الخاصة، فردَّت عليها الدكتورة قائلة إنها لن تقوم من مكانها، طالبةً منها هي أن تقدم مقعدها للمسنة. واستمرت المشاجرة حتى وصل المترو إلى محطة الجامعة. علقت الدكتورة سهام على القصة قائلة إن العنصرية قد زادت كثيرًا مؤخرًا. ثم تناولت شريحة بوفتيك كبيرة ووضعتها في طبقها. انتظر حاتم الذي يمتلك محلًّا لبيع الأثاث المستعمل حتى فرغ فمه من المضغ ثم قال:

ـ أصلك يا دكتورة ما كنتيش هنا لما حصلت حداشر سبتمبر. ساعتها كان الجو متكهرب بجد، وما بقاش يجيلي زبون ألماني، قعد الوضع كده أسبوع ولَّا اتنين، وبعدين رجع تاني عادي زي الأول. دلوقتِ الدنيا هادية. برلين مش بتاعة عنصرية.

قالت هبة وهي توزع ملاعق الأرز في صحون ضيوفها:

ـ العنصرية في دم الشعب الألماني حتى لو ما بينوهاش.

ثم تدخل الدكتور شريف زوج الدكتورة سهام في الحديث

t.me/qurssan

الدائر وقال إن هناك في الغرب كثيرًا من المعتدلين وإن واجبنا أن نوضح لهم أننا لسنا جميعًا مثل أبو مصعب الزرقاوي الذي يسمعون عنه في الإعلام. كان الدكتور شريف وزوجته سهام من أوائل المصريين الذين تعرفنا إليهم، بحكم عملهما في الجامعة التي تدرس فيها هبة، وكانا أيضًا من المنتقلين حديثًا إلى برلين، إذ لم يمضِ على انتقالهما أكثر من بضع سنوات، على العكس من حاتم الذي يعيش في المدينة منذ نحو عشرين عامًا.

رفعتُ أنا وهبة الأطباق من على المائدة، وبدأتُ أجهز شايًا في المطبخ. أما هبة فقد أخذت صينية الكنافة التي صنعتها وذهبت إلى المائدة. عندما عدت إلى مكاني كانت هبة تروي كيف تحدث يوسف كلماته الأولى اليوم. فابتهج الضيوف وباركوا لنا. ثم حدثتنا الدكتورة سهام عن حضانة لتعليم الأطفال اللغة العربية، إذ يتحدث المربون فيها العربية، فيكون باستطاعة الطفل التقاط اللغة بسهولة من صغره. ورأت هبة أن هذه فكرة حسنة، واقترحت عليَّ أن ننقل يوسف إلى تلك الحضانة عندما يكبر قليلًا، فهززت رأسي. قالت الدكتورة سهام إنه حتى يحين ذلك الوقت يمكننا أن نجعل يوسف

t.me/qurssan

يشاهد قناة «براعم»، ونظرت إليَّ، لكني لم أقل شيئًا. ثم قال الدكتور شريف فجأة:

- إنتم قريتم دراسة الدكتور شتيفان شتوتة الجديدة بتاعة استخدام الألمان لمفهوم الجهاد لصالحهم في الحرب العالمية الأولى؟ دراسة هايلة، لازم نعمل معاه حوار للعدد الجديد.

ثم أخذوا يتحدثون عن العدد القادم من مجلة «ديوان»، إذ كان الدكتور شريف حلمي وزوجته وهبة أعضاء طاقم تحرير المجلة الأكاديمية التي تصدر بالألمانية كل فصل. خرج حاتم إلى البلكونة للتدخين، وتركت أنا الضيوف يتحدثون وذهبت لأستطلع ماذا يفعل يوسف في غرفته.

عدتُ في اليوم التالي إلى مكاني أمام بيت «سونج»، وفكرت اليوم وأنا جالس على مقعدي في الحديقة أنني لم أعرف عنها الكثير. كنت أعرف فقط أنها من كوريا الجنوبية، من مدينة لم أستطِع قَطُّ تذكر اسمها، وكنت أعرف أنها لم تتجاوز السادسة والعشرين، وكنت أعرف أنها تشعر بالسعادة في برلين. هذا هو كل ما أعرفه عنها. لم نكن نتحدث كثيرًا على أي حال. كثيرًا ما كنت أتمشى مع «سونج» بعد مدرسة اللغات في الشوارع القريبة حتى

t.me/qurssan

نصل إلى النافورة المجاورة. لم تكن هي تعرف الإنجليزية بشكل جيد، لذلك لم تكن بيننا لغة مشتركة سوى الألمانية التي شرعنا في تعلمها. في تلك التمشيات كنا ننزلق فوق سطح اللغة الذي ما زال هشًّا. فمثلًا كانت «سونج» تقول:

ـ هذا رجل يرتدي قميصًا أصفر.

فأصحح لها أنه يرتدي قميصًا أخضر. أو أقول أنا مثلًا:

ـ الجو ساكن اليوم.

فتصوب لي جملتي قائلة:

ـ إن الجو صحو.

ثم نأخذ في الضحك. عندما كنا نقف لكي نشتري آيس كريم من الدكان المجاور للمدرسة، كانت لكل منا طريقته في التخلص من ورطة التعامل بالألمانية. هي كانت تتعمد أن تقول بدقة ماذا تريد بلهجتها الصعبة، ما كان يؤدي إلى أسئلة استيضاحية كثيرة من البائع أو البائعة، تجيب عنها «سونج» كلها بسعة صدر، لكن بكلمات يصعب على الآخرين فهمها عادةً. أما أنا فكنت أستخدم الإشارة أكثر من الكلام، ثم أهز رأسي إيجابًا لأي سؤال يأتي من البائع. النتيجة في كلتا الحالتين كانت دائمًا غير متوقعة. بعدها نجلس على مقعد خشبي، نأكل الآيس كريم، ونتابع المياه المتدفقة من النافورة صامتين، بعد أن نكون قد استنفدنا كل حصيلتنا اللغوية.

t.me/qurssan

(٣)

في إحدى أمسيات الشتاء، في العام الثاني من انتقالنا إلى برلين، كنا جالسين أنا وهبة نشاهد فيلم «أرض الخوف» بعد أن حممت يوسف ووضعته في فراشه، ثم حان وقت الفاصل الإعلاني، فضغطت هبة بيدها على الريموت كونترول لتمنع الصوت، لكنها لم تضعه بعد ذلك في مكانه على الطاولة، بل بقي قليلًا في يدها وهي تنظر إلى نقطة ما على الأرض. ثم ضغطت ضغطة أخرى على الريموت فاختفت الصورة تمامًا، ونظرت إليَّ قائلة:

ـ إنت مش ملاحظ إنك ما بقيتش تتكلم معايا من ساعة ما جينا ألمانيا!

نظرت إليها مستغربًا. فتابعت:

ـ أقصد كلام بجد. لما بنبقى في البيت يا إما إنت قاعد بتتفرج على التلفزيون يا إما قاعد بتقرا الجرايد.

ثم ابتسمت واقتربت مني وقالت:

ـ فيه حاجة شاغلاك؟ قولِّي أنا زي مراتك برضو!

ثم فكرت هبة قليلًا وقالت:

t.me/qurssan

ـ احتمال تكون ملّان. طب إيه رأيك تقف مع حاتم في المحل بتاعه؟ تسلي نفسك وتقابل ناس جديدة.

فأجبتها بأني لا أريد أن أعمل حاليًا. تنهدت هبة ثم صمتت. كانت جالسة على طرف الصوفا، بظهر مقوَّس، في حين كنت أجلس أنا بجانبها على الكرسي الوثير، وأسند خدي إلى راحة يدي. بقينا في الغرفة صامتين، وكان بالإمكان سماع صوت تدفق المياه في أنابيب التدفئة المركزية، حتى التفتت هبة إليَّ فجأة وقالت:

ـ إيه رأيك تتعلم ألماني؟ فرصة واحنا هنا، ولغة أجنبية ممكن تكون مفيدة ليك.

فكرتُ قليلًا ثم وافقت. فلمعت عينا هبة.

مدرسة اللغات التي التحقت بها كانت في وسط المدينة، وكنت أحتاج إلى ما يقرب من الساعة للذهاب إليها فوق دراجتي. لم يكن طول المسافة يزعجني، بل على العكس، كنت أستمتع بمشاهدة المدينة من فوق الدراجة. سرعة الدراجة المتوسطة بين سرعة المشي وسرعة السيارة جعلت زوايا المدينة ومنحنياتها تذوب بنعومة في وعيي، فأشعر كأني أطفو فوق المدينة، ولا أخترقها اختراقًا. نعومة

t.me/qurssan

تتالي تفاصيل المدينة كانت تسمح لي بأن أشرد بعقلي بعيدًا، فكنت أفكر فيما قالته لي هبة، وأفكر في يوسف ولغته التي أحبها، وأفكر في أبي الذي علمني ركوب الدراجة، فقد ظلَّ يدفعني من الخلف وهو يطمئنني أني لن أقع لأنه يمسك بي. كان توازني يختل أحيانًا وأسقط، فيسندني ويعيدني فوق الدراجة مرة أخرى. خفتُ وطلبت منه أن يتوقف، لكنه أخذ يدفعني وأنا أصرخ، ثم اقتربنا من منحدر فزادت سرعتي، حتى إن ساقيَّ لم تعودا تلاحقان دوران البدال. شيء ما على هذا المنحدر جعلني أتوقف عن الصراخ، ربما كان ملمس الهواء الناعم فوق وجهي، أو الشعور الغامض بأن حياةً بأكملها تفتح ذراعيها لي، أو لعله ببساطة الطيرانُ الخفيف فوق الأرض. حتى انتبهت إلى أني أصبحت في عالم آخر، وأني لم أعد أسمع صوت أبي، فأخذت أنادي عليه، إلى أن جاءني صوته من بعيد وهو يضحك يخبرني أنني قد تعلمتُ ركوب الدراجة بالفعل، فلم أصدق، وتطلعت خلفي لأتأكد أنه لا يجري ورائي، فلمحته يقف بالفعل قبل المنحدر ويلوح لي، قبل أن يختل توازني وأسقط من فوري.

لكن على الرغم من متعة الذهاب إلى المدرسة على

t.me/qurssan

صهوة دراجتي، التي كانت تتيح لي أن أشرد طويلًا، فإني فكرت أكثر من مرة في الانقطاع عن الدراسة، إذ كان جو الفصل الدراسي يثقل عليَّ كثيرًا، لأنه يذكِّرني بمرحلة المدرسة التي كنت أكرهها. في أول يوم اضطررت إلى أن أعرِّف بنفسي، فذكرت اسمي، لكن المعلمة لم تكتفِ بذلك، وطلبت منا أن نذكر هواية من هواياتنا، فلم أعرف ماذا أقول. ألحت المعلمة وقالت إن بإمكاني أيضًا ذكر أي تفصيل عن نفسي، فنظرت حولي حائرًا، وشعرت بنظرات الآخرين موجهةً نحوي. تابعت المعلمة أن هناك بالتأكيد في حياتي أمرًا مثيرًا يمكنني أن أشارك الآخرين فيه، ثم ساد صمت ثقيل، إلا إني هززت رأسي نافيًا. تطلعت إليَّ المعلمة ثم رسمت على وجهها ابتسامة، وانتقلت إلى الشخص التالي. وفي الاستراحة كنت أجلس وسط زملائي الغرباء بجوار ماكينة القهوة، وأضطر إلى تجاذب أطراف حديث ممل معهم. ومما زاد الطين بلة أن المعلمة الشابة انتهجت معنا منهجًا يقوم على التفاعل والألعاب الجماعية، فكانت تطلب منا أحيانًا أن نقسم أنفسنا إلى مجموعات صغيرة، ونتبادل أوراقًا صغيرة مكتوب عليها كلمات منفردة لكي نصنع منها جملة، فكنت أشعر بالبؤس الشديد وأنا جالس وسط هؤلاء الناس الذين لا أعرفهم، ونتداول في معاني الكلمات

t.me/qurssan

الصغيرة، ثم ننتدب منا أحدًا ليقرأ جملًا من قبيل: «أنا اسمي «هانز»»، أو ««كرستينا» تقوم برحلة في أفريقيا».

غير أني لم أترك الدراسة، فقد أدركت أن المدرسة أصبحت محور اهتمام هبة، والخيط الذي اختارت أن يجمعنا معًا. تركي لها يعني أن أقطع ذلك الخيط. في اليومين اللذين أذهب فيهما إلى مدرسة اللغات كانت هبة تتحدث معي مطولًا عندما أعود. كانت تسألني بشغف عما أخذناه، وعن ماذا وقع لي من أحداث خلال المدرسة. عندما فكرت في ترك الدراسة أدركت أن هبة ستشعر بالحزن، وربما تعود للشكوى من أني لا أتكلم معها، فقررت الاستمرار في الدراسة. وكنت أجيب عن أسئلة هبة بصبر، وأروي لها أحداثًا صغيرة وقعت في الفصل. كنت أتحاشى ذكر ضيقي من العودة إلى المدرسة في مثل هذه السن، وحرجي من التأتأة في الحديث بلغة جديدة. وأحاول جاهدًا أن أذكر لها شيئًا مثيرًا حدث، وعندما لم تكُن هناك أحداث هامة تستحق الرواية، وهو ما يحدث عادةً، كنت أصف لها شكل الفصل، وما هو معلق على الحوائط، والملابس التي ترتديها المعلمة. وكما يصلح المرء أخطاء تلميذ خائب كانت هبة تصوب لي في النهاية

t.me/qurssan

الأخطاء التي أقع فيها وأنا أخبرها مضمون درس اليوم بفضل درايتها باللغة الألمانية.

لذلك عندما سألني حاتم بعد أن انتقلت إلى بيته إذا ما كنت أرغب في دراسة شيء في هذه المدينة، تذكرت الساعات التي أنفقتها في مدرسة تعليم اللغة تلك، وأجبت فورًا بالنفي. في الأسابيع الأولى بعد أن انتقلت إلى بيت حاتم كنت أجلس لساعات أستمع إلى ما يقوله. كان حاتم منفعلًا في البداية لأنه لا يفهم ماذا يحدث، فقد باءت محاولاته لحثي على عمل شيء في هذه المدينة بالفشل، وفي الوقت نفسه كنتُ متمسكًا بالبقاء فيها. حتى عرضُه بالوقوف معه في المحل رفضته. كان يقول لي:

ـ إنت عندك مراهقة متأخرة. عندك ٣٩ سنة، وعايز ترمي حياتك ورا ضهرك وتبدأ حياة جديدة دلوقتِ؟

ثم يقول لي:

ـ إنت فاكر هتلاقي نفسك هنا؟ هتشتغل إيه؟ عاجباك عيشتنا دي؟ إحنا عاملين زي اللي رقصوا على السلم، لا احنا هنا ولا احنا هناك.

وأنا أبقى ساكتًا، فيتابع:

t.me/qurssan

ـ عايز تسيب مراتك اعمل ده هناك في مصر، إنما ما تسيبهاش كده وتفضل هنا في برلين.

كان ينتظر مني إجابة، لكني لم أعرف ماذا أقول، فأظل ساكتًا. فيقول:

ـ مش عايز تتكلم ليه؟ هبة عندها حق. ارجع لمراتك وابنك أحسنلك.

في إحدى الحصص، جمعتني مع «سونج» مجموعة عمل واحدة. كان المطلوب منا الاستماع إلى تسجيل صوتي، ثم مناقشة ما فهمناه من التسجيل. بدا أن التسجيل يخص برنامجًا إذاعيًّا أو تلفزيونيًّا، وسمعنا صوت رجل يسأل: «بماذا تفكر؟» ثم إجابات تتتالى من أصوات مختلفة. رجل يقول: «أفكر في العمل». امرأة تقول: «أفكر في الغداء». صبي يقول: «أفكر في الواجب المدرسي». شاب يقول: «أفكر في مباراة الليلة». كانت الإجابات قصيرة وحاسمة. وبينما كنا نعمل على تدوين الإجابات التي نلتقطها من التسجيل الصوتي، التفتت إليَّ «سونج» وقالت:

ـ يا له من تسجيل سخيف.

t.me/qurssan

فابتهجت أخيرًا لوجود أحد يشاركني مللي من الدرس، وقلت لها:

ـ إنه سؤال سخيف بالفعل.

فردَّت قائلة:

ـ نعم، كيف يمكن للمرء الإجابة عن هذا السؤال؟

ثم طلبت المعلمة من مجموعتنا أن تخبر الآخرين بما توصلنا إليه، فتحدثت «سونج» نيابةً عن مجموعتنا، وعرضت ما كانت الأصوات التي استمعنا إليها تفكر فيه. وبعد أن انتهت أثنت عليها المعلمة، ثم سألتها مبتسمة:

ـ وأنتِ يا «سونج»، فيمَ تفكرين؟

ابتسمت «سونج» قليلًا، وحبستُ أنا أنفاسي. فكرَت قليلًا ثم قالت:

ـ بصراحة، أفكر كم هو ممل هذا التدريب.

وضحكت وهي تنظر ناحيتي نظرة جانبية، فضحك كل من هم في الفصل، ومعنا المعلمة.

وبعد أسابيع طويلة من الذهاب إلى مدرسة اللغات ظننت أني فهمت أخيرًا ما قصدته هبة، وأني تمكنت من إصلاح

t.me/qurssan

ما قالت إنه فسد بيننا، من خلال رواية أحداث يومي لها، لكني كنت مخطئًا، ففي أحد الأيام لاحظت أن حنفية حوض الحمام تسرب مياهًا، فقدَّرت أنها بحاجة إلى جلدة جديدة. أقفلت محبس المياه، ثم حللت قلب الحنفية، واستخرجت الجلدة العازلة، فرأيت أنها أصبحت بالفعل مهترئة. أخذتها معي، ووضعت يوسف على المقعد الخلفي للدراجة، وذهبنا لنشتري جلدة جديدة. كان يوسف في مزاج جيد، فلم يتوقف عن الثرثرة أمام أرفف أدوات السباكة الموجودة في المحل. عرضتُ الجلدة على البائع، فنظر إليها جيدًا، ثم اصطحبنا إلى أحد الرفوف، وأشار إلى كومة من الحلقات الجلدية الصغيرة. التقطت واحدة، وقارنتها بالتي في يدي، فاطمأننت إلى تطابقهما. شكرت البائع وهممت بالانصراف، إلا إن يوسف أخذ يوجه حديثه الذي لا ينتهي إلى البائع، ثم أخذ حديثه يكتسب إيقاعًا، وتحول مع الوقت إلى ما يشبه أغنية ألقاها بمنتهى الثقة. فابتسم البائع وسألني عن ماذا يقول يوسف. فهمت ساعتها أنه يظن أن يوسف يتحدث لغة أبيه، فضحكت وقلت له إنه يغني بلغته الخاصة.

في المساء عادت هبة إلى البيت، وتوجهت إلى الغرفة لكي

t.me/qurssan

تغير ملابسها، في حين انتظرتها مع يوسف حول مائدة العشاء في المطبخ. توقعتُ أن تلاحظ إصلاح الحنفية بعد أن رأيتها تذهب إلى الحمام، لكنها لم تفعل. فرويت لها أحداث اليوم، وكيف ذهبنا أنا ويوسف إلى المحل، وكيف غنى يوسف أغنية كاملة أمام البائع. بعد العشاء، حممتُ يوسف. أجلسته في البانيو وأنا أمرر المياه على جسده الصغير وأدعكه بالصابون، فتحول لون مياه البانيو إلى لون داكن بفعل الطين الذي راكمه على جسده في أثناء اللعب في الحضانة. كان يفتح فمه وأنا أغسل شعره الكثيف محدثًا فتحة صغيرة، وينفخ منها في الماء المنهمر ليتطاير الرذاذ فتغمره السعادة. ثم جلست معه قليلًا في غرفته حتى نام. بعدها ذهبت وجلست أمام التلفزيون. شاهدت برنامجًا وثائقيًّا على قناة ألمانية، يدور على الأرجح حول سقوط حائط برلين، لم أفهم الكلام الدائر في البرنامج، لكني كنت مستمتعًا بمشاهدة اللقطات التاريخية التي يعرضها البرنامج. أمواج من البشر تتحرك في الشوارع، أجواء من البهجة حول نقطة تفتيش، بعضهم يعتلي السور وينهال عليه بمعول كبير. عالم بأكمله ينهار، وآخر يبزغ. حتى شعرت بالنعاس، فتوجهت إلى الحمام وغسلت أسناني، ثم دخلت غرفة النوم. كانت هبة جالسة ساكنة في السرير، فتمددت بجوارها، وقبل أن أتمنى لها نومًا هانئًا نظرت ناحيتي وسألتني بجدية:

t.me/qurssan

ـ إنت هتفضل تستخبى كده لحد إمتى؟

لم أفهم ماذا تقصد، فصاحت بعصبية:

ـ قولي فيك إيه. أنا عايشة مع واحد ما بقيتش أعرفه. قولِّي إنك تعبان، قولِّي إنك فرحان. قولِّي إنك بتحبني، قولِّي إنك بتكرهني. قولِّي كلام بجد يا أخي.

كان صوتها عاليًا يشق سكون ليل دالم الهادئ، حتى إني خفت أن يستيقظ يوسف على صياحها.

(٤)

اهتزت نقطة الضوء ببطء، مالت يمينًا ويسارًا، فخرجت من قلب العتمة فئران لها ذيول طويلة. كانت ذيولها تشتبك ثم تنفك، تبتعد ثم تقترب. توسط أحد الفئران المكان، فأصبحت نقطة الضوء مصباحًا خافتًا يتأرجح فوق رأسه يمينًا ويسارًا، ثم أخذ هذا الفأر في الغناء، فخرج من حنجرته هسيس خافت. أخذ صوته البشع يعلو تدريجيًّا، ما أشاع القلق بين باقي الفئران، فاضطربت في مكانها، وحاول بعضها الهرب لكنه لم يفلح. ازداد التوتر بشدة،

t.me/qurssan

ثم وقع انفجار هائل فجأة فتطاير الجميع. نهضتُ من نومي مفزوعًا على صوت الانفجار، ورأيت ألسنة اللهب تنبعث من سيارة حمراء مصفوفة في الشارع، وقد تناثرت شظايا نوافذها الزجاجية فوق الأسفلت، وشاهدت من بعيد مجموعة من الشباب الملثم تجري سريعًا وتغادر المكان. بقيت متجمدًا في مكاني أمام السيارة المشتعلة وأنا أفكر في أن الفوضويين قد عادوا لحرق السيارات الفارهة. تطلعت بجواري فرأيت جاري لا يزال نائمًا، فمددت يدي بخفة محاولًا سرقة المدية التي يخبئها تحت رأسه، لكنه انتبه، فانتفض وأمسك بتلابيبي وطرحني أرضًا. ثم تناهى من بعيد صوت إنذار سيارات الشرطة والمطافئ، فتركني الرجل وجمع كيس نومه وغادر المكان سريعًا. بعدها نهضت وأنا أرتجف من البرد، وقدَّرت أن عليَّ أيضًا أن أغادر المكان سريعًا قبل وصول الشرطة. جمعت كيس نومي القذر على عَجل، ومشيت بسرعة حتى وصلت إلى زاوية منعطف فدخلت فيه، ثم شعرت بالنار تكوي أحشائي من جديد، فتوقفت واستندت إلى الجدار، وأخذت أتقيأ.

كان ينبغي لي أن أتدبر أمر الخسارة الفادحة التي تكبدتها

t.me/qurssan

هذه الليلة، فهذه البقعة التي آوتني في ليالي الشتاء الطويلة نادرة، ولن يمكنني البيات فيها مرة أخرى، على الأقل حتى تفرغ الشرطة من تحقيقاتها. جمعت قواي وسرتُ في الجولة المعتادة على محطة القطارات، ثم محطة المترو، ثم بدرومات البيوت التي تكون أبوابها غير محكمة الغلق، بحثًا عن مكان أقضي فيه ما تبَقى من الليل. كنت قد عثرت على هذه الفجوة النادرة داخل بيت مجاور لحديقة صغيرة، يمكن دخولها فقط من منفذ صغير غير واضح. لم أكن الوحيد الذي عثرت عليها بالطبع، فقد كان يبيت في الفجوة رجل آخر. كانت الفجوة محاطة بحوائط أسمنتية ويعلوها سقف، ما جعلها مثالية للوقاية من المطر. اقتربت من الرجل في الليلة التي عثرت فيها على الفجوة، وحاولت وضع كيس نومي بجواره، فنهض وأشهر مدية في وجهي، ودفعني إلى الخارج. كنت مهدودًا من التعب، وكان الشتاء قارسًا. نزعت محبس الزواج من إصبعي، وأعطيت الرجل آخر ما تبَقى لديَّ من حطام الدنيا، فقلَّبه بين أصابعه المتسخة، ثم نظر إليَّ وعاد إلى مكانه. ففرشت كيسي بجواره ونمت.

كان حاتم صبورًا معي طيلة إقامتي عنده التي طالت كثيرًا،

t.me/qurssan

لكن صبره بدأ ينفد في الأشهر الأخيرة. لم يتبقَّ لديَّ كثير من المال، ولم تعد في استطاعتي المشاركة في إيجار الشقة. وذات يوم قال لي حاتم إن هذا الوضع يجب أن يتغير، وإن شَغلي للصوفا في شقته لا يمكن أن يستمر إلى الأبد. بتُّ ليلتي الأخيرة عند حاتم ولم أشعر بشيء. وفي الصباح نزلت أهيم على وجهي، محاولًا عبثًا أن أجد طريقة لاقتراض بعض المال. لم يكن لديَّ أصدقاء آخرون، ولم يكن يحركني أي دافع سوى الابتعاد عن الناس. كنا في أواخر فصل الصيف والحرارة لا تزال معتدلة، فتركت نفسي أبيت الليلة في إحدى الحدائق العامة. ثم تلت الليلة شهور طويلة وأنا أعيش بلا مأوى. كنت أريد فقط أن أكون وحيدًا تمامًا ككلب ضال. وكلما أوغلت في وحدتي صعب عليَّ تخيل العودة. وصرت أقضي أيامي في عربات المترو، وحين يقرصني الجوع أذهب إلى المركز الاجتماعي الذي كانوا يقدمون فيه طعامًا ساخنًا للمشردين. وفي المساء أقف بجوار أندية الرقص الكبيرة، أحوم حول الشباب المصطف في طوابير الدخول الطويلة، لكي أجمع زجاجات البيرة الفارغة التي كانوا يشربونها في أثناء انتظارهم، ثم أعيدها وأحصل على قيمة رهنها. ولم يكد الصيف ينتهي حتى كنت قد فقدت دراجتي، وفقدت ساعتي وباقي متعلقاتي على الطريق.

t.me/qurssan

وعندما دخل الشتاء لم يعد متبقيًا لديَّ سوى معطف مهترئ، وشنطة ظهر صغيرة أضع فيها كيس النوم، وصورة لهبة ويوسف.

بعد أن غادرت هبة برلين ومعها يوسف حدست أن تلك ليست سوى البداية، وأن انهيارًا أكبر لا يزال في انتظاري. رحلت هبة عن برلين وهي تكرهها، وأنا بقيت فيها. ارتباطي بهذه المدينة أشبه بالقدر، ففيها انفتحت الهوة تحت قدمي، وانهارت حياتي تمامًا من دون أن أعرف لماذا، ومن دون أن تكون لديَّ أي رغبة في إنقاذها. الحبل السُّري الذي ربطني ببرلين كان نظرة «سونج». في كل مقعد حديقة أفترشه في تشردي، بعد كل طعام رديء أزدرده، مع كل نوبة قيء تصيبني، كانت نظرة «سونج» تلك تلح عليَّ كتميمة أقدسها وأخاف منها في الوقت نفسه. لم تكن هي سبب انتقالي من هدوء الضاحية إلى أتون المدينة، أو من بيت حاتم إلى شوارع التشرد، لكنها كانت رفيقة انهياري. أحملها معي كتميمة لا أعرف كنهها، لكني أعرف أنها أصبحت ملاذي الوحيد في هذه المدينة. لذلك أدركت بعد أن أفقت في المستشفى من الصدمة، أدركت أنه لم يعد هناك مكان أذهب إليه في

t.me/qurssan

برلين سوى الحديقة المقابلة لبيتها. لعلِّي أراها، وأقطع هذا الحبل السُّري.

المرة الوحيدة التي أخبرت فيها هبة عن «سونج» كانت عندما سألتني عن زملائي في الدرس، فقلت لها إن معظمهم يتحدثون كثيرًا باستثناء فتاة من كوريا أستظرفها لأنها تبقى صامتة معظم الوقت. فابتسمت هبة ولم تعلق. وددت أن أحكي لها عن تمشياتي مع «سونج» بعد المدرسة، بل وددت أن أحكي لها أني نمت معها مرة وحيدة، حتى أستطيع أن أخبرها عن نظرتها التالية تلك، فهي ما يستحق الإخبار عنه، لكنها ككل الأشياء التي أحاول أن أمسك بها كانت تفر من بين أصابعي، فأنتهي بأن أضعها جانبًا. ربما لو كنت نجحت أن أحكي لهبة عن ذلك لما أخذت الأمور ذلك المنحى معها. ربما كانت ستقول لي إني خائن، لا أتحمل المسؤولية، أو إني مراهق. ولديها الحق في ذلك بالتأكيد. كل هذا يمكنني تحمله، إلا أمرًا واحدًا لم أكن أطيقه، وهو عندما ستسألني مجددًا ماذا حل بي. أنا لم أعد أتحمل هذا السؤال. ماذا أقول لكِ يا هبة؟ أنا ليس بي أي شيء، ولا أشعر بأي شيء. أنا لست سعيدًا

t.me/qurssan

ولا تعيسًا. لست مشغولًا ولا خالي البال. لست ناجحًا ولا فاشلًا. لا أحب ولا أكره.

بعد أسبوعين من ضياع الفجوة التي كنت أبيت فيها، عثرت على مكان أسفل جسر القطارات الذي يقطع النهر. كانت المنطقة أرضًا خرابًا مهجورة، تقطعها قواعد الجسر الأسمنتية، فانتقيت بقعة مستوية فيها، ووضعت عربة التسوق، التي أخزن فيها الزجاجات بعد جمعها لاستبدالها بقيمة الرهن، وضعتها في موازاة إحدى قواعد الجسر، فتكونت فجوة بين العربة والقاعدة. كنت أفرش كيس نومي كل ليلة في تلك الفجوة، وأنام متوسدًا حقيبة ظهري الصغيرة. في إحدى الليالي أفقت من حلم رأيت فيه ثعلب «سونج» الدامي يتحدث لغة يوسف. كان يوجه كلامه إليَّ. ثم شعرت بأقدام تقترب من مكاني، ولم أكن قد نمت بعد. ظللت راقدًا في مكاني وأنا أرهف السمع، وقدرت أن الأصوات تخص أكثر من شخص. ثم توقفت الأقدام عند البقعة التي كنت راقدًا فيها. سمعتهم يتحدثون، قبل أن يزيح أحدهم عربة التسوق بعنف، فأصدرت الزجاجات جلبة عالية. ثم أخذوا يتناولون الزجاجات ويهشمونها في القاعدة الأسمنتية، وهم يضحكون بصوت عالٍ. نهضت

t.me/qurssan

من فوري فوجدت نفسي أمام خمسة شباب، ثلاثة أولاد وبنتين، لا يتجاوز عمرهم عشرين عامًا. لم يبدُ أنهم مخمورون. حاولت أن أبعد العربة عنهم، لكن الشباب أخذوا يدفعونني بعيدًا، والشابتان تُقلدان صوت القرود في وجهي. أسقطوني على الأرض، وأكملوا تهشيم كل الزجاجات التي كانت في العربة، ثم رحلوا. نهضت وسط شظايا الزجاج المهشم وأنا أرتجف من الخوف. وبدأت في إزاحة الشظايا جانبًا. ثم سمعت أقدامًا تأتي من خلفي، فالتفتُّ فرأيت إحدى الفتاتين تتجه ناحيتي وبيدها شيء لم أميزه. اقتربت مني حتى أصبحت في مواجهتي، وصرخت بجملة لم أفهم منها شيئًا، ثم أشعلت الشيء الذي في يدها وألقته على كيس نومي وفرَّت. فاشتعلت النيران.

في أحد النهارات المدرسية، وبعد الانتهاء من حصة اللغة، سألتني «سونج» إذا ما كنت أود أن أتعرف إلى الثعلب. لم أفهم ما تعنيه، وظننت أنه أحد المزالق اللغوية التي تحدث دائمًا بيننا. سألتها إذا ما كانت تقصد الحيوان الذي يدعى الثعلب أم تقصد شيئًا آخر. فقالت لي:

ـ الثعلب هو الثعلب.

t.me/qurssan

لم أتمكن من الفهم لكني قلت لها إنني أود بالفعل التعرف إلى الثعلب، فاصطحبتني إلى بيتها. كانت تسكن غرفة صغيرة في حي فريدريشسهاين. كان الانفعال باديًا عليها طوال الطريق، فكانت تقول جملًا ملغزة من قبيل أن لا أحد يراه، أو أنهم يضربونه بقسوة. حتى وصلنا إلى غرفتها، فطلبت مني الانتظار في الخارج، ثم عادت وأمسكت بيدي وقادتني إلى الداخل. سارت معي بضع خطوات ثم أشارت وهي مرتبكة إلى الحائط. كانت اللوحة المرسومة عريضة، وتشبه في دقتها صورة فوتوغرافية. رأيت تقاطع شارعين في وضح النهار، كانت السيارات تتهادى في نهر الشارع، والمارة يقطعون الطريق: سيارة كانت تنحرف داخلة في الشارع الآخر، وجماعة من الأمهات التركيات المحجبات كن يَسِرن وهن يدفعن أمامهن عربات أطفالهن. أسفل اللافتة التي تحمل اسمَي الشارعين المتقاطعين كان هناك شاب يقف ويدخن. كل ذلك صوِّر بطريقة شديدة الواقعية. وفي جانب المشهد، رأيت أخيرًا ثعلبًا صغيرًا جالسًا على عتبات أحد المنازل يتطلع إلى التقاطع. كان الثعلب صغيرًا ومنكمشًا على نفسه، حتى إني لم ألحظه للوهلة الأولى. وعندما ركزت تعرفت على ملامحه. كانت فروته بنية وخطمه أسود. وعندما دققت جيدًا فيه، رأيت ما يبدو أنه آثار دماء على رأسه. ثم ظهر لي أن الثعلب

t.me/qurssan

ليس جالسًا، وإنما منطرح فوق قدميه الخلفيتين، كأنه يجر نفسه بقوة قدميه الأماميتين. كانت إحدى القدمين الخلفيتين مائلة بزاوية أكثر انفراجًا من القدم الأخرى، فقدرت أنها مكسورة. أخذت أتطلع إلى اللوحة مليًّا، ثم شردت بنظري من النافذة، إلى أن وقفت «سونج» بجواري وأمسكتُ بيدها.

(٥)

انتهت أيام دالم الهادئة بعد أن كثُرت مشاجراتنا أنا وهبة. كانت هبة قد قررت قبول عرض تمديد المنحة لمدة سنتين أُخريين، ونظمت ساعات عملها بحيث تقضي وقتًا أطول في البيت. وبدلًا من أن نقترب من بعض أكثر كما أمَّلنا، زادت المشكلات بيننا. كان يكفي أن أقول شيئًا حتى تفهم عكسه. عندما أقول لها مثلًا إني سأذهب بيوسف إلى الحضانة لكي تركز في عملها، كانت تغضب وتفهم من كلامي أني أتعطف عليها، وتقول لي إنها ستقوم بذلك بنفسها، ويكون هذا سببًا لمشاجرة طويلة تقول فيها هبة إنها لم تطلب مني قَطُّ أن أقوم بواجبات البيت، وإنها

t.me/qurssan

من الآن فصاعدًا ستقوم بذلك بنفسها. فأقول لها إني أعرف أنها لم تطلب مني أن أقوم بواجبات البيت، وإنني أعملها بكل سرور من نفسي. فتغضب من جديد وتقول إنني أتهرب من الكلام معها من خلال قيامي بواجبات المنزل ظنًّا مني أنني بذلك أفي بالدور المطلوب مني، وبالتالي لا يحق لأحد أن يطلب مني شيئًا آخر بما أني وفيت بدوري. فأصبحت أتجنب قول أي شيء، وأقتصر على العبارات البسيطة التي لا تعني شيئًا، ما جعلني أكثر صمتًا، وبالتالي أكثر إثارة لأعصاب هبة. كنا ندور في دائرة مفرغة، لا نعرف كيف نخرج منها.

وفي أحد الأيام عادت هبة من الجامعة وقالت لي إنها قررت عدم الاستمرار في المنحة والعودة إلى القاهرة. كانت هادئة في هذا اليوم، جلست على الصوفا وأخذت تحتسي الشاي الذي صنعتُه لها للتو. قالت إن هذه المدينة تسرق حياتها منها، وإنها فكرت طويلًا في خيار الانتظار حتى تفرغ من الدكتوراه ثم العودة حتى لا تقطع سلمها الوظيفي، لكنها شعرت بأنها لو انتظرت فلن تعود حياتها كما كانت، وأنها ستفقدها إلى الأبد. ثم نظرت إليَّ وقالت بهدوء:

t.me/qurssan

ـ دي فرصتنا الأخيرة.

في حديقة المنزل وقف زوج من الغربان يكسر سوادهما رتابة لون الثلج الأبيض المتراكم في الحديقة ولون السماء الرمادي. أخذ زوج الغربان يتقافز فوق الثلج بحثًا عن شيء ما، ثم فرد أجنحته وطار بعيدًا. أومأت برأسي لهبة، فسألتني:

ـ إنت لسه بتحبني؟

فأجبتها بالإيجاب.

فقالت:

ـ خلاص، خلينا نرجع مصر لحياتنا زي ما كنا.

في الأيام الثلاثة التالية حلمت بحلم واحد متكرر وهو سرقة دراجتي. كان حزني في الحلم ملتبسًا، فلم أعرف إن كنت حزينًا على ضياع الدراجة لأنها أضحت رفيقة دروبي، أم لأنها هدية هبة لي. كل يوم كنت أهرع صباحًا بعد استيقاظي إلى مكان الدراجة لأتأكد من أنها لم تُسرق، ثم أذهب إلى البحيرة. كان سطح البحيرة متجمدًا بفعل البرودة القارسة. في فصل الصيف كانت المياه تعود إلى قوامها السائل، ويتغير لونها إلى الأخضر القاتم،

t.me/qurssan

وتظهر عيدان البوص والهيش على جوانبها. وفي فصل الشتاء كان سطح البحيرة يفقد تجاعيده، ويصبح مصقولًا ومستويًا. لم أرَ أحدًا يسبح فيها يومًا، كان الناس يتمشون حولها فقط، يقطعون دورات واسعة ثم يذهبون، صيفًا وشتاءً، كأن هناك قوة تسري فيها وتجذب كل شيء إليها ليدور حولها. وأنا أيضًا كنت كثيرًا ما آتي إليها لكي أتمشى حولها. جذبني هدوؤها واحتجابها وراء أشجار السنديان العالية. بمجرد أن أدخلها أشعر بأني أنسحب بعيدًا عن العالم الخارجي. مررتُ اليوم بالأشجار العارية، حتى وصلت إلى البحيرة. قمت بدورة حولها، ثم توقفت ونظرت حولي في المكان، فلم أرَ أحدًا آخر. كنت وحدي تمامًا أمام البحيرة، فتركت المدق الذي يحيط بها، ونزلت خطوتين إلى مستوى الماء المتجمد. كان ملمس الهواء البارد قاسيًا، ومن قلب الصمت الكثيف الذي يحيط بالمكان سمعت حولي أزيزًا. أدركت أنه صوت الهواء البارد عندما يمر على صفحة الثلج. نقلت خطواتي المتثاقلة ببطء فوق الجليد المصقول. أجرُّ خطوة وراء أخرى. بعد كل خطوة كنت أتوقف وأنتظر أن يظهر الشرخ، فتتدفق المياه الداكنة التي تشفُّ تحت سطح المياه المتجمد، لكنه لم يظهر، فأسير خطوتي التالية. حتى وصلت إلى منتصف البحيرة وأخذت أتطلع حولي. كان

t.me/qurssan

الصمت مطبقًا، والثلوج تغطي كل شيء، طامسة العالم حولي. وقفت في مركز البحيرة التي تحيط بها الغابة، ثم أطرقت ناظرًا إلى حذائي الثقيل، ووقفت منتظرًا.

في اليوم الرابع خرجت وسرت وحيدًا فوق الثلوج، حتى تجمدت أطرافي من شدة البرد. في الطريق إلى البيت لم أكن على ما يرام، وفكرت في بيتنا في القاهرة وفي مكتب المحاسبة الذي كنت أعمل فيه. فكرت فيما نفعله هنا في برلين وفي قرار هبة. كان سؤالها المرعب «مالك؟» يتربص بي في كل زاوية أمُر بها. تناهى إلى سمعي الصوت الرتيب لضغط حذائي الثقيل على سطح الثلج، وبدت لي حياتي ككتلة مبهمة لا تخصني، تطلعتُ إليها من بعيد وهممت أن أكمل طريقي، لكنها التفتت إليَّ فجأة وبدأت تقترب مني. أخذتني المفاجأة وتجمدت في مكاني، وتجسدت الكتلة الهلامية شيئًا فشيئًا من الأفق لتأخذ شكل كرة معدنية ضخمة، كرة في طريقها لكي تدك جدران بناية. كانت هذه البناية هي أنا. وضاقت المسافة تدريجيًّا بيني وبين الكرة المعدنية الضخمة، وانسحب الهواء من حولي فلم أعد أتمكن من التنفس، فتملكني رعب هائل، وأسرعت إلى البيت. وجدت هبة جالسةً إلى مكتبها، فلم أعرف ماذا أفعل،

t.me/qurssan

لكني لم أستطِع التوقف. أسرعت إلى الممر، ثم توجهت إلى غرفة النوم. فتبعتني هبة إليها وهي تصيح:

ـ في إيه؟ في إيه؟

وقفت في وسط الغرفة أنظر إليها وأنا ألهث. بقيت هبة تنظر إليَّ، حتى قلتُ متلعثمًا بصوت مهزوز:

ـ أنا هافضل هنا يا هبة.

تجمدَت وانتظرَت أن أقول شيئًا آخر. قلتُ:

ـ أنا مش عايز أسافر معاكم يا هبة، أنا عايز أفضل هنا لوحدي.

قالت هبة بعد صمت:

ـ أنا كنت عارفة إن حبك ليَّ خلص خلاص.

فزعقتُ:

ـ أنا هافضل أحبك طول عمري.

طفرت الدموع من عينيها، وأنا أخذتني نوبة صراخ حادة، وجعلت أكرر صارخًا:

ـ لأه. لأه. لأه.

ثم تدافعت من حنجرتي الكلمات بشدة مثلما تتدافع المياه من الشقوق والتصدعات، وأخذت أصرخ في وجهها

t.me/qurssan

بكلمات سريعة. فقدت سيطرتي تمامًا على نفسي، وعلا صراخي وازدادت حدته حتى أصبحت كلماته مبهمة، مقاطع صوتية أقرب إلى التأوهات والحشرجات. وخرجتُ من غرفة النوم وأنا أصرخ، وتوجهت إلى الصالة وأنا أصرخ، ثم فتحت باب البيت وخرجت إلى الحديقة وأنا أصرخ. وقفت وسط الثلوج وأنا أصرخ بصوت مشروخ، وبكلمات لم يعد لها معنى، ثم انقلب صراخي إلى صوت غير آدمي، وارتفعت عقيرتي بعواء صافٍ مُخيف يشق عنان السماء. بعدها خارت قواي، وانغرزت ركبتَاي في الثلج. خرجت هبة مسرعة نحوي وأحاطتني ببطانية واحتضنتني، ثم أخذت تبكي.

قضينا أيامنا الأخيرة في بيتِ دالم وكل منا يتحاشى الآخر، كحيوانين غريبين، أغلق عليهما حارس قفصًا واحدًا. لم نعد نعرف من نحن، ولا من وضعنا معًا، بل كان يخاف أحدنا من الآخر. كنت ألمح الرعب في عين هبة عندما تجمعنا غرفة واحدة، رعبًا هائلًا أكبر من قدرتها على إخفائه. أما أنا فبدأت أختبر للمرة الأولى موجات الغثيان تمسك بأحشائي، ثم تأخذ في التصاعد حتى أُصبح على وشك القيء. انهمكت هبة في الإعداد للسفر، وجمعَت

t.me/qurssan

الأشياء التي أرادت أخذها في أكوام، لكي تقوم لاحقًا بوضعها في حقائب السفر. ربما كان بإمكاني أن أراجع موقفي، أو أن أحاول أن أثنيها عن السفر، أو حتى أن أطلب منها تأجيله، لكني عوضًا عن ذلك كله كنت أقضي يومي خارج المنزل بجوار البحيرة، وعندما أعود أنام فوق الصوفا الموجودة أمام التلفزيون. كنت أفتح عينيَّ كل يوم فأجد يوسف يقف جواري ويتطلع إليَّ، ثم يبسط راحته ويقول وقد أصبحت لغته تتكون من كلمات سليمة تتخللها بعض كلمات من لغته الخاصة:

ـ هات إيدك.

ويأخذني إلى غرفة النوم ثم يقف صامتًا.

عندما أخذتني هبة في حضنها يوم أن انهرتُ على أرض حديقة المنزل قالت لي وسط دموعها:

ـ أخيرًا اتكلمت.

وكانت تلك آخر جملة سمعتها منها، فهي لم تكلمني عندما حددت ميعاد السفر، وإنما اتصلت بحاتم، وكنتُ قد تركت البيت وانتقلت للإقامة عنده بالفعل، وطلبَت منه أن يخبرني بأن أذهب إلى البيت وأتخلص من آخر

t.me/qurssan

الموجودات فيه لأنها ويوسف سيسافران في اليوم التالي. كانت هبة قد اعتنت بأمر إنهاء عقد الشقة، وطلبت من صاحب البيت أن يتصل بي لكي يعطيني مبلغ التأمين. ذهبت أنا وحاتم بعد سفر هبة ويوسف بأسبوع مستقلين سيارة نقل صغيرة من أجل تفكيك ما يخصنا من أثاث البيت، واتفقنا أن ننقله إلى دكان حاتم الخاص ببيع الأثاث المستعمل. في الطريق كان الهواء المتسرب من نافذة السيارة ناعمًا يحمل رائحة الربيع، بعد أفول الشتاء. وقال حاتم وهو يقود السيارة:

ـ كم هو جميل الخروج من المدينة لاستنشاق بعض الهواء النقي.

ثم أشعل سيجارة. عندما وصلنا، دخلت البيت، وانشغل حاتم بفتح صندوق السيارة الخلفي استعدادًا لتحميلها. وقفت قليلًا في غرفة المعيشة أنظر حولي. كان الهواء ثقيلًا في البيت. ثم جاء حاتم وبدأنا بتفكيك المكتبة، وحملنا أرففها الخشبية والصوفا إلى السيارة. بعدها دخلت غرفة النوم فوجدت حقيبة موضوعة على السرير، فتحتها فوجدت أن هبة جمعت فيها ثيابي ومتعلقاتي. كانت الملابس مطوية بعناية، ومرتبة بطريقة تجنبها الكرمشة، وفوقها وضعت هبة كتاب تعليم اللغة الألمانية والكشكول

t.me/qurssan

الذي كنت أكتب فيه. نظرت إلى الحقيبة ووقفت ساكنًا أمامها، ثم أخذ تنفسي في الاضطراب، وأجهشت في البكاء. حتى دخل حاتم، فأغلقت الحقيبة، واتجهت إلى الدولاب لكي نبدأ في تفكيكه. ربت هو على ظهري وشد على ذراعي، ثم ساعدني في التفكيك.

كل ما هو أمامي تحيله دراجتي خلفي، لينضم إلى باقي ركام حياتي. تجعل كل شيء ينفلت من حولي بعيدًا. كل ما أراه أمامي، كل ما أراه داخلي، كل الكلمات، كل الوجوه، كل الأماكن، كل ما قد مضى، كل ما هو آتٍ، كل ذلك تطحنه دراجتي ثم تذروه خلفي: هبة، يوسف، حاتم، القاهرة، بيت دالم، نظرة «سونج»، أحلامي، رغباتي، الحب، يوسف، هبة. أخلف ورائي غبارًا غير مرئي وسط بنايات لا أعرفها وبشر لا أعرفهم، بعيدًا عن الضاحية التي ألفت معالمها. كل يوم كنت أهوي من جديد في شوارع المدينة، أخوض في متاهتها اللانهائية، لا لكي أصل إلى شيء، وإنما لكي أتخلص من كل شيء. وكلما زادت سرعتي على الدراجة، زاد تخففي من كل ما هو داخلي. أسابيع طويلة قضيتها بعد انتقالي إلى بيت حاتم دائرًا في الشوارع والطرقات بلا هدف، ولا أعود في المساء إلا بعد أن أشعر بأني فارغ تمامًا.

t.me/qurssan

(٦)

عندما أشعر بالملل، أعبر الطريق وأقف تحت سقف محطة الأتوبيسات القريبة من مدخل منزل «سونج». أبقى هكذا أتنقل بين الحديقة والمحطة حتى المساء من دون أن أراها، ثم أغادر خائبًا، لكي أعود في الصباح التالي إلى مكاني من جديد. اقتصرت نوبات الغثيان على المساء، ولم تكن تزيد عن نوبة أو نوبتين، أما في الصباح فكان بإمكاني أن أجلس ساعات طوال على المقعد الخشبي من دون الحاجة إلى القيء، وهو تحسن ملحوظ في حالتي. هربت من المستشفى بعد أن لامست قدماي القاع، ومن يومها وأنا أجلس كل يوم برأس معصوب أمام بيت «سونج». كنت مشوشًا طيلة أيام انتظاري أمام بيتها، أخاف أن تقع عيناي عليها بقدر رغبتي في رؤيتها. في كل مرة أظن أني أراها تخرج من بيتها أو تدخله، كنت أضطرب متمنيًا أن تكون هي وأن لا تكون هي في الوقت نفسه. لا أمل لي في التعافي إذا لم أرَها، وإذا رأيتها وتعافيت سينفتح أمامي عالم مخيف لا أعرف عنه شيئًا. كأن «سونج» هي القشة التي تفصل بين عالمين. فقد كنت أعرف أنني إذا تعافيت فلن أعود

t.me/qurssan

إلى ما كنت عليه، بل لن أكون أنا الشخص نفسه الذي كنته من قبل.

كان الهواء عليلًا، ولمست في نفسي إعجابًا بهذا الحي، حتى إني تخيلت نفسي أسكن فيه. بجواري جلس رجل خمسيني معه كلب أسود. كان الرجل يتحدث كثيرًا إلى كلبه، وكانت عين الكلب الذكية تدل على أنه يفهم كل كلمة يقولها الرجل. على الجانب الآخر من الحديقة وقف عامل يلصق لافتة دعاية انتخابية على لوح خشبي مثبت فوق حاملين. كان وجه المرشح يظهر جزءًا فجزءًا، حتى إذا أكمل العامل مهمته وضح وجه كبير، وظهرت جملة مكتوبة على اللافتة بجانب اسم المرشح تقول: «الحرب على الإرهاب ـ معًا نحقق الأمن والأمان». عندما انتهى العامل من إلصاق اللافتة نزل السلم الصغير الذي كان يستخدمه، ثم تطلع إلى اللافتة ليتأكد من استقامتها، بعدها جمع أغراضه ووضعها في سيارته وانطلق. ولم تكد السيارة تختفي حتى قام الرجل الذي كان يجلس بجواري هو وكلبه، واتجها إلى اللافتة. تطلع إليها مليًّا، ثم أخرج عبوة ألوان رش، ولطخ وجه المرشح باللون الأسود، وشطب على الجملة المكتوبة،

t.me/qurssan

كاتبًا تحتها: «كاذبون». بعدها سار بهدوء وعاد إلى مكانه بجواري.

يومي الذي أوصلني إلى القاع كان طويلًا. كنت أجلس القرفصاء ذات ليلة ربيعية في مكاني تحت الجسر، أنظر إلى مياه النهر الداكنة، وأضغط على حجر في يدي حتى لا أشعر بالجوع. كانت ليلة طويلة جافاني فيها النوم، وطالت جلستي فيها أمام النهر. ظننت أن الجوع يلعب برأسي عندما سمعت صوتًا مخيفًا، يشبه النشيج. لكن تأكدت أني لا أهذي لأن حدة الصوت كانت تعلو مع تقدم الليل وانحسار الضوضاء. فنهضت لأبحث عن المصدر، وقادني الصوت إلى بقعة في الأرض المهجورة. سرت أتحسس طريقي في الظلام الدامس، وكلما تقدمت أثار الصوت فيَّ مزيدًا من الرعب. كانت الصرخات الوحشية تتدافع كأن صاحبها يرزح تحت التعذيب. خفت وفكرت أن أعود، ثم ميزت ذيلًا يطلُّ من خميلة صغيرة، فتجمدت في مكاني. وشيئًا فشيئًا استطعت رؤية حيوان ممدد على الأرض. وقفت أنظر إليه حتى انقطعت صرخاته. عندها تشجعت واقتربت منه فوجدت ثعلبًا راقدًا على بطنه، رقبته ممطوطة، وعيناه لا تنظران في اتجاهي. أقعيت بجوار

t.me/qurssan

الحيوان، ففتح الثعلب شدقيه، وأصدر صفيرًا لزجًا، ثم أخذ صوته يضعف تدريجيًّا، إلى أن صرخ صرخة أخيرة خشنة ثم همد جسمه، واندفعت دفقة بول من مثانته. وضعت يدي على جبهته، كانت لا تزال دافئة، ثم مررت راحتي على فروته النظيفة.

جلست بجوار الجثة ما تبَقى من الليل، إلى أن أشرق الصباح وانقشع البخار من فوق النهر، عندها رفعتُ الجثة من ذراعيها وحملتُها. سرت بالثعلب الميت على كتفي كطفل صغير، تنزُّ من خطمه سوائل لزجة على رقبتي، وتملأ رائحة الموت أنفي. كنت أقصد الذهاب إلى موضع على النهر تربته ناعمة يسهل الحفر فيها بدلًا من هذه الأرض الصلبة، لكن ذلك كان يستلزم المرور بالشارع المجاور. مشيت وأنا أحمل الجثة تارة فوق إحدى كتفيَّ، وتارة فوق ساعديَّ الاثنين، لكن الحمولة بقيت ثقيلة، فصرت أتصبب عرقًا تحت ثقلها. تجلدت قدر استطاعتي، لكني شعرت بأن روحي تزهق مني. وفي أحد التقاطعات لم أحسن تقدير ارتفاع الرصيف، فزلت قدمي ووقعت أنا والجثة على الرصيف، وتجمع بعض الناس حولنا. كانوا يصيحون ويشيرون إلى الثعلب. فنهضت سريعًا،

t.me/qurssan

وحملته فوق ذراعي، وانطلقت مهرولًا بعيدًا عنهم، إلى أن وصلت إلى الموضع الذي قصدته. تأكدت أن لا أحد يتبعني، وقفزت فوق السياج المعدني القصير الذي يحيط به. بحثت عن مكان هادئ وبعيد عن الأعين، ثم وضعت الثعلب على الأرض، وشرعت في حفر الأرض بيدي. لم يكن الحفر سهلًا كما ظننت، ودميت يداي ولم أصل بعد إلى عمق كبير، فقررت أن أضع الجثة في الحفرة الصغيرة، وأهلت عليها التراب، وغطيتها بأوراق شجر جمعتها، ثم أحطت موضع الدفن بأحجار صغيرة لتحديده. وبعد أن انتهيت من عملي جلست خائر القوى بجانب الجثة، وقد تغطت تمامًا، ولم يعد يظهر منها شيء.

قضيت معظم النهار بجوار الجثة المدفونة، ثم قررت العودة إلى موضعي، متخذًا طريقًا آخر غير الذي سرت فيه هذا الصباح. كان ملمس فرو الثعلب الناعم لا يزال في أصابعي وأنا أسير، ثم انشق الطريق فجأة عن الدكتور شريف وزوجته الدكتورة سهام. بانت أمارات الفزع على وجهيهما، وظلَّا يحدجانني بنظراتهما، ثم اقترب مني الدكتور بحذر وقال لي:

ـ مالك؟

t.me/qurssan

قلت له:

ـ أنا كويس، بس التعلب مات.

فأمسك بكتفي وقال يجب أن تذهب معنا. حاولت تخطيه، لكنه أصر معللًا ذلك بأنه لن يعثر عليَّ مرة أخرى. مشى ممسكًا بذراعي عدة أمتار، وزوجته تسير خلفنا بترقب، حتى وصلنا إلى السيارة، فأراد أن يدخلني عنوة، فحررت ذراعي من يده وأشهرت مديتي في وجهه، وقلت له إني سأمزقه إذا لم يدَعني وحالي. كانت يداي ترتعشان من التعب، وقدماي لا تكادان تحملانني، فلم يأخذ الدكتور شريف تهديدي محمل الجد، وأمسك بذراعي ولواها، وانتزع المدية من يدي، وحشرني في السيارة مغلقًا الباب الخلفي. تحسست الدكتورة سهام أنفها وصاحت:

ـ ريحته بشعة.

ما إن زادت سرعة السيارة حتى أصابتني اهتزازاتها بالضيق، وتصاعدت موجات الغثيان في جوفي، وقبل أن أستطيع أن أفتح النافذة تقيأت على ظهر مقعد الدكتورة سهام، وفاحت رائحة عصارة معدتي. جن جنون الدكتور شريف، وأخذت الدكتورة سهام تصرخ:

t.me/qurssan

ـ إيه القرف ده يا شريف؟! وقف العربية وارميه براها، ده لازم يدخلوه حجر صحي.

استمر الدكتور شريف في القيادة وهو يشتم هذه البلاد. لم تتوقف نوبات الغثيان، وكانت النار تشتعل من جديد في جوفي كلما خمدت، فأستفرغ بصقات من العصارة، حتى توقفت السيارة أمام بيت حاتم، فأنزلني الدكتور شريف، وبقيت زوجته في السيارة. حاولت أن أتملص منه، لكنه أمسك بي، ثم سحبني بقوة، فسقطت على الأرض. أنهضني ثانيةً، لكن قميصي تمزق بفعل قبضته القوية، فلفَّ خرقة منه حول ذراعي، ليُحكم إمساكي، ودفعني أمامه بصرامة إلى مدخل البيت.

جلستُ أمام حاتم والدكتور شريف وأنا أرتدي فانلتي الداخلية فقط. قال الدكتور شريف:

ـ لازم نلاقي صرفة فيه. ده بيخطرف. يا إما أهله يبعتوا ياخدوه، يا إما نلم فلوس ونشتريله تذكرة على مصر. إنما ما ينفعش نسيبه هنا.

فأجاب حاتم:

ـ هدي نفسك بس يا دكتور.

t.me/qurssan

ثم التفت إليَّ وسألني:

ـ إيه الغيبة الطويلة دي؟ ما وحشناكش؟ طيب ما وحشتكش هبة ويوسف؟

كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها حاتم منذ خرجت من بيته قبل ستة أشهر. ثم قام وذهب إلى المطبخ وأعد شايًا وأحضر معه بعض أقراص البسكويت. أمسكت بكوب الشاي براحتي، وتركت نفسي لخدر الدفء الذي يتسلل تدريجيًّا من الكوب إلى يدي، وأخذت أحتسي منه ببطء، كان أول شيء دافئ يدخل معدتي منذ أيام. قرَّب مني حاتم الطعام، لكني لم أمسَّه. كان منظره كفيلًا بأن يبعث في جوفي الغثيان مرة أخرى. قال الدكتور شريف:

ـ البلد دي متوحشة. لو سبناه هنكون أذنبنا في حقه، وفي حق نفسنا. لازم نرجعه لمصر.

صمت حاتم قليلًا ثم قال لي:

ـ إيه رأيك تدخل تاخد دُش؟

وأردف أنه يتمنى مني أن أسامحه على طرده لي، وأن أبقى معه في المنزل إن شئت. وقال:

ـ عندي عشم إنك تقعد.

t.me/qurssan

بقيت ساكنًا في مكاني، ثم نهضت واتجهت إلى باب المنزل، فهبَّ الدكتور شريف نحوي ليمنعني، وهو يقول:

ـ طيب نوديه لعيادة الدكتور أسامة وهوَّ يشوفله حل.

لكن حاتم أمسك بذراعه. فتحت الباب وغادرت البيت، ثم أغلقت الباب خلفي.

كان المساء قد حلَّ عندما خرجت إلى الشارع. سرت منهار القوى واتجهت إلى محطة المترو. على زجاج نوافذ القطارات لمحت انعكاس صورتي القاتم، كانت ذقني قد طالت، وملابسي حال لونها. لا أدري كم من الوقت أمضيته متنقلًا من عربة إلى عربة. رأيت تجار المخدرات الصِّبية وهم يقفزون إلى المترو من إحدى المحطات ليغادروه في التالية، وخلفهم المدمنون. رأيت بعض السكارى وهم يكسرون زجاجات البيرة في العربة. رأيت متسولين يسيرون وخلفهم كلابهم الضخمة. ثم نزلت إلى رصيف المحطة التالية، ووقفت لا أعرف أي طريق أسلك. كان الرصيف هادئًا في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وشعرت بأحد يقترب مني من الخلف. التفت إليه فرأيت لدهشتي رجلًا طلى وجهه باللون الأبيض، وشدقيه باللون الأحمر الغامق. كان يشبه «جاك نيكلسون» في دور

t.me/qurssan

«جوكر». وقف في مواجهتي لحظات طوال. كان الجميع قد تبخر من المحطة، ولم يبقَ سوانا. كان يرتدي قميصًا برتقاليًّا، وكرافتة زرقاء. ضيَّق عينيه المظللتين بالأسود وهو ينظر إليَّ، وأنا أنظر إلى ابتسامته الواسعة المرسومة على وجهه ثم إلى عينيه الضيقتين، وبدأ شيء لا أعرفه يجذبني إلى هذين الثقبين. ثم هوى بقبضته على وجهي. كان يحمل شيئًا مدببًا في قبضته لم ألحظه، ولكني شعرت به وهو يخترق لحم وجهي. ثم ضربني بيده الأخرى على رأسي ففقدت اتزاني، ووقعت على أرض المحطة، فأخذ يركلني بقدمه في رأسي وبطني وهو يضحك ضحكًا هستيريًّا. بعدها ساد الظلام.

(٧)

بسط يوسف راحته وقال لي:

ـ هات إيدك.

نهضت من فوق الصوفا ومشيت معه تاركًا يدي في يده. كانت هبة في غرفة النوم تجهز حقائب السفر. قادني

t.me/qurssan

يوسف إلى باب البيت، ففتحته وخرجنا معًا. سرنا في الغابة، ومررنا بالبحيرة، ثم أكملنا إلى أن وصلنا إلى جوار النهر. مشينا حتى طلب مني يوسف أن نجلس، فجلسنا بالقرب من الماء. كنا في الموضع نفسه الذي دفنتُ فيه الثعلب، فقد كانت الأحجار التي تحيط به موجودة في مكانها. أخذ يوسف يحفر في مكان الدفن، فاضطربت ونهيته عن ذلك، لكن يوسف أكمل حَفره وهو يقول لي بحدة:

ـ بص هنا. بص هنا.

ويشير إلى الحفرة التي يحفرها. نظرت إلى موضع الحفرة منتظرًا أن أرى عظام الثعلب، لكن الحفرة كانت خالية. مد يوسف يده إلى عمق الحفرة وتناول شيئًا ثم وضعه في راحتي. بسطت يدي فرأيت فيها سنًّا صغيرة لامعة البياض. قربتها من عيني لأفحصها لكنها اختفت فجأة، ورأيت امرأة ترتدي الأبيض تحدثني ولا أفهم ما تقوله. نظرت حولي، وحاولت أن أنهض، لكني لم أستطِع. كان رأسي يؤلمني، وأشارت لي المرأة بأن أبقى في السرير. أردت أن ألمس رأسي، لكني اكتشفت أنه معصوب. كان حلقي مرًّا، فأمسكت بطرف غطاء السرير وبصقت فيه، فرأيت أني أبصق دمًا.

t.me/qurssan

لا أدري كم يومًا قضيت في المستشفى. كان الألم يقل تدريجيًّا، ورأسي يصفو يومًا بعد يوم. وبعد أن انقشعت الغيوم لمست قدماي أخيرًا أرضًا صلبة، ففهمت أني وصلت إلى القاع، وأدركت أنه لم يبقَ ما أفعله سوى أن أسعى للقاء «سونج». وانسللت ذات يوم من المستشفى واتجهت من فوري إلى بيتها.

أسبوع كامل أجلس أمام بيتها يومًا وراء يوم على أمل أن أراها، لكن ذلك لم يحدث سوى اليوم. رأيتها تسير بحذائها ذي الكعب العالي، وبنطلونها السترتش الأسود، وفوقه جاكت جينز. كانت تحمل أُطرًا خشبية ملونة. دق قلبي بعنف، وعبرت الطريق بسرعة، وهرولت حتى أصبحت في مواجهتها. توقفت «سونج» وبدا عليها الخوف، ثم قالت:

ـ يا إلهي! ماذا حدث لوجهك؟

ـ «سونج»، أريد أن أعرف منكِ شيئًا واحدًا فقط.

تطلعتْ إليَّ مليًّا، فأسرعت أقول:

ـ أريد فقط أن تنظري إلى عينيَّ مرة أخرى وتقولي لي: هل لا يزال يسكنهما ما أفزعكِ آخر مرة رأيتكِ فيها؟

t.me/qurssan

نظرت إليَّ «سونج» في خشية، فرجوتها أن تفعل. زاغت نظراتها عني يمينًا ويسارًا، حتى بدأت تتشجع وتوجه نظرتها إلى عينيَّ مباشرة. وعندما أمسكت عيناها بعينيَّ نفذت برهافة إلى أعماقي، وشقت نظرتها كل ما هو بداخلي طبقة وراء طبقة. كانت كل ذرة في كياني تستجيب لتلك النظرة، تشعر بها وتلمع تحت نورها. ظللنا لبرهة ساكنين وأعيننا مثبتة، اختصرت فيها «سونج» عامًا كاملًا من حياتي. ثم رفَّ جفنها، وقالت:

ـ لا.

وقفنا بعدها طويلًا صامتين، وأخيرًا قالت «سونج» إن عليها أن تذهب الآن، فهززت رأسي. وقالت قبل أن تسير مبتعدة:

ـ وداعًا.

وقفتُ في مكاني أنظر إليها وهي تخطو، ثم ناديت بأعلى صوتي:

ـ «سوونج»!

فتوقفت والتفتت إليَّ. قلت لها:

ـ لقد قابلت الثعلب.

t.me/qurssan

ـ كان يحتضر. وبعد أن مات دفنته بجوار النهر.

ـ حقًّا؟ هذا خبر محزن.

شردت لبرهة، ثم قالت:

ـ لعلَّ ذلك أفضل له الآن.

صمتنا قليلًا، ثم قلتُ لها مبتسمًا:

ـ وداعًا.

ولوحت لها بيدي، فأشرقت ابتسامة على وجهها ولوحت أيضًا بيدها، واستدارت نحو بيتها.

عدت إلى مقعدي الخشبي في الحديقة. وابتسمت وأنا أفكر أن «سونج» أصبحت تتحدث الألمانية بطلاقة. نظرت إلى نافذتها في الطابق الثالث، ثم صعدت بنظري إلى أعلى البناية، ثم إلى السماء. كانت صافية والشمس مشرقة. أخذت نفَسًا عميقًا، ونزعت عن رأسي العصابة ونهضت.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

شبابيك جديدة

كنتُ أجلس على مقعدي في الصالة الغارقة في الظلام، أتأمل وجوه الحيوانات التي تحيط بي. بعضها كان ينظر إليَّ، وبعضها يشيح وجهه عني. بعضها كان يتحدث معي، وبعضها يبقى صامتًا. من بعيد رأيت ضوءًا ضعيفًا يخرج من غرفة النوم ويسقط على أرضية الطرقة المقابلة. قطع رنين الهاتف صمت الليل، فرفعت السماعة. كنت أعرف أنه أحمد. جاءني صوته تسبقه خروشة أصبحت معتادة. سألني عن أحوالي، فقلت له إني بخير، ثم سألني ما إذا كان عامل الألوميتال قد ركَّب الشبابيك بالفعل، فأخبرته أنه لم يأتِ اليوم، فاستغرب ثم قال إن بإمكانه أن يرسل لي عاملًا جديدًا يعرفه، فلم أُرحب، وقلت له إن الأول قد أخذ المقاسات وإنه سيظهر بالتأكيد غدًا أو بعد غد. ثم سألته إذا كان حصل على الفيزا التي ينتظرها، فقال

t.me/qurssan

إنه ما زال في انتظار رد السفارة. صمتنا قليلًا. لم يكن لديَّ شيء أقوله، وبقي هو أيضًا صامتًا، حتى ظننت أن الخط انقطع، فناديت عليه، فقال إنه ما زال على الخط. ثم تمنى لي ليلة طيبة، وأنا فعلت مثله. وضعت السماعة على جهاز الهاتف، وتوقعت أن يرن مرة أخرى، لكنه لم يفعل، فعدت إلى مقعدي، ضممت ركبتيَّ إلى صدري، ثم أخذتُ في البكاء.

في الصباح التالي استيقظتُ على جرس الباب المتكرر. نهضت وأنا أحاول أن أعرف كم الساعة الآن، ثم سألت من خلف الباب عن هوية الطارق، فقال الرجل الواقف على الناحية الأخرى:

ـ أنا مصطفى بتاع الشبابيك يا مدام.

فتحت الباب، فأخذ مصطفى يعتذر عن عدم حضوره بالأمس بسبب مرض ابنته المفاجئ. ثم سألني إذا كان يستطيع أن يدخل الصالة لكي يثبِّت الشباك، فأفسحت له الطريق. كان مصطفى قد جاء قبل عدة أيام، أخذ مقاسات شبابيك البيت، ووعد بتفصيلها وتركيبها أمس. أعددت كوبين من الشاي، ثم أخذت أتطلع إلى مصطفى وهو يفك الدرفتين الخشبيتين ويركنهما بجانب الحائط، ثم يُعمل

t.me/qurssan

إزميله محاولًا انتزاع الحلق الخشبي. كان الإطار مثبتًا جيدًا في الحائط، ما جعله يستخدم قوته في الطرق على الإزميل وتحريكه، وأخذت شظايا الحائط في التناثر على الأرض حوله، قطع مدببة ومتفاوتة الحجم من الطوب والأسمنت، وارتفعت سحابة صغيرة من الغبار. علق مصطفى قائلًا إنه خشب جيد، ثم أثنى على قراري بعمل شبابيك ألوميتال لأنها جيدة العزل، كما أنها عملية أكثر من الخشب. وأضاف:

ـ مفيش حد بقى بيركب شبابيك خشب اليومين دول، بقت موضة قديمة خلاص.

وأنا تذكرت اليوم الذي رسم فيه نجار آخر ثلاثة خطوط بثلاث درجات مختلفة من اللون البني فوق خشبة صغيرة قبل سبع سنوات، وسألني أحمد يومها عن أيهما أفضِّل، فاخترت الدرجة الأولى، البني المائل إلى الحمرة. قال النجار آنذاك إنه اختيار موفق يتناسب مع لون الحوائط البيج، وصنع شبابيك جميلة للشقة بقيت مثار حسد ضيوفنا لوقت طويل.

مضت ستة أشهر على ذلك اليوم من شهر أغسطس الذي غادر فيه أحمد البيت ولم يعد إليه بعدها مرة أخرى. قمت

t.me/qurssan

خلالها بنفسي بطلاء حوائط غرفة النوم والصالة بلون أبيض، ثم طلبت من السباك أن يغير قاعدة الحمام، وأن يُركب بانيو جديدًا. أما أحمد فقد ترك مدينة ٦ أكتوبر كلها، وترك عمله في شركة الإنشاءات، واستأجر شقة في وسط البلد. من حين لآخر يتصل بي بالتلفون ليسأل عن أحوالي، ولا يزال في انتظار الحصول على الفيزا ليرافق هُدى إلى أمريكا حيث ستكتب رسالة الدكتوراه بعد أن حصلت على منحة للدراسة هناك. قبل رحيله عن البيت بأسبوع أخبرني ذات يوم بأنه لا يحتمل المزيد، وأنه يجب أن يتحدث معي. كان مساءً صيفيًّا عاديًّا. عاد هو من عمله في موقع الإنشاءات ووضع حقيبة ظهره جوار مكتبه، ثم ساعدني في غسل الخضراوات وتحضير العشاء. ونحن جالسان نأكل ونتحدث، شرد قليلًا ثم قال لي إنه لم يعد يحتمل المزيد. نظرت إليه باهتمام لكي يفصح، فقال إنه وقع في حب هدى منذ عام، وإنه عمل جاهدًا خلال العام الماضي بأكمله على مقاومة هذا الحب الجديد والحفاظ على علاقتنا، لكنه فشل، ولا يعرف الآن ما الذي يتعين عليه فعله. بعدها توقف عن الكلام ونظر إليَّ. وأنا بقيت جامدة أنظر إليه. ثم انفجر في البكاء. بقيت في مكاني أنظر إليه حتى فرغ من نحيبه وقال لي:

t.me/qurssan

فوليلي حاجة أرجوكِ!

فقلت له:

ـ هيَّ هدى وصلت معاك؟

نطلع إليَّ أحمد ذاهلًا وقال:

ـ تقصدي إيه؟ أنا مش فاهم.

فكررت عليه سؤالي:

ـ هيَّ هدى وصلت للأورجازم بتاعها معاك؟

بقي متجمدًا لوهلة، ثم انفجر في البكاء مرة أخرى.

أكمل مصطفى خلع شباك الصالة، وثبت الشباك الألوميتال، ثم ترك الدرفتين والحلق الخشبي مكومين على الأرض في الصالة بجوار باب البيت، وقال إنه سيعود غدًا لإكمال باقي الشبابيك لأن الوقت تأخر. اختبرتُ حركة درفة الشباك الجديد المعدني في مجراها ذهابًا وإيابًا، ثم شعرت بالبرد فأغلقت الدرفة وضغطت على المقبض البلاستيكي لأُحكم غلقها. لاحظت أن أصوات الشارع الخارجية أصبحت أقل وضوحًا. وفكرت أن أتصل بأحمد لأخبره بتطورات الشباك، لكني ترددت، ثم

t.me/qurssan

نجحت أخيرًا في طرد الفكرة من رأسي. عندها رن جرس التلفون. تطلعت إليه بفزع كأني أسمع جرس التلفون للمرة الأولى في حياتي، ثم تناولت السماعة. سمعت صوت نادية تسألني عن أحوالي، فقلت لها إني بخير، وأخبرتها بتغيير شباك الصالة. نادية قالت لي إنهم دعوا بعض الأصدقاء يوم الخميس، وإن عليَّ أن أنضم إليهم، فوافقت على الفور، وقلت لها إني سأساعدها في الطبخ، ثم أنهينا المكالمة. وأنا في الطريق إلى المطبخ حانت مني التفاتة، فتعلقت عيني بعين البومة التي التفتت هي أيضًا لي في هذه اللحظة وقالت:

ـ أنا أعرف كل شيء.

هي بالتأكيد تعرف، فهي تسهر الليالي الطويلة وترى ما لا يراه الآخرون. انتظرتُ أن تقول المزيد، لكن البومة الحكيمة كانت قليلة الكلام، لا تريد أن تخبرني بما تعرف، تقول لي فقط إنها تعرف. لعلها تريد طمأنتي لأنها تعرف حالي، أو تحميني من معرفة ما فيه بؤسي وشقائي. أكملت طريقي إلى المطبخ، ثم عدت وتناولت نوتة الكتابة وجلست أدون فيها بعض الكلام.

تعرفتُ إلى هدى في بيت نادية. مخرجة شابة قادمة

t.me/qurssan

من المنصورة، وتقوم بعمل فيلم عن أطفال الشوارع في القاهرة. تحدثت معها أكثر من مرة في المرات التي تصادف والتقينا فيها عند نادية. كانت تحكي لي عن التجارب التي تمر بها في القاهرة في أثناء تصوير الفيلم، لكني لم أجد فيما تقوله شيئًا يجذبني على وجه خاص، وشعرت بأني رأيت فيلمها مئات المرات قبل ذلك، حتى قبل أن تفرغ منه. كان بيت نادية يموج بالوجوه والحركة عندما وصلت. استقبلتني سلمى على الفور، وأخذت تجذب ساقي حتى حملتها على كتفي، ثم نظرت إليَّ منتظرة أن نبدأ لعبتنا المعتادة، أدفن رأسي في صدرها وأعضها بشفتي، فتقرقع هي من الضحك، ثم أسألها:

ـ بقيتِ إيه النهارده يا سمسم؟

فتقول:

ـ أنا دلوقتِ فراشة.

فأمثل أني أصطاد الفراشة فتضحك. ذهبت إلى المطبخ حاملةً سلمى لأرى ماذا تفعل نادية. كان الطعام شبه جاهز، فأنزلت سلمى وساعدت نادية في تقطيع السلطة، ثم ساعدتُ الآخرين في حمل الأطباق، وجلسنا لتناول الطعام مع باقي الضيوف. كالعادة سألني الجميع عن أحوالي وأحوال البيت، فقلت إني بخير. جاءت جلستي

t.me/qurssan

بجوار عماد، فسألني عن أحوالي الآن، وكيف تسير الأمور، فقلت له إني بخير، فقال إنه التقى أحمد الأسبوع الماضي بالصدفة في وسط البلد، وإنه لم يصدق أن أحمد قد حلق ذقنه. وأضاف:

ـ شكله كده أحسن بكتير، كأن عمره صِغر عشر سنوات.

نظرت إليه ثم أومأت برأسي، فاعتذر وقال إنه لا يقصد شيئًا، وقال أيضًا إنه يعتقد أن ما حدث كان يجب أن يحدث، وإن ذلك أفضل للجميع. هممت أن أسأله ماذا يقصد، لكني صرفت نظر.

فتحتُ زجاجة بيرة وعدت إلى مجلسي بجوار نادية. كانت الجلسة الآن قد تحولت من غداء لعدد محدود من الأشخاص إلى ما يشبه الحفلة. جاء مزيد من الأصدقاء، وأحضروا مزيدًا من الشراب، وانخرطنا في مزيد من الأحاديث. أحيانًا كانت نادية تميل عليَّ لتقول لي ما رأيكِ في فلان أو عِلان فلا أجيبها. وأحيانًا كان يأتي أحدهم للحديث معنا. قال لي أمجد:

ـ إيه أخبار الكتابة؟ آخر مجموعة صدرتلك كانت من زمان.

t.me/qurssan

«لت له إني أتحدث كثيرًا مع الحيوانات هذه الأيام. «سألني ما إذا كنت أكتب الآن قصصًا للأطفال، فاستفسرت «نه قائلة:

ـ ليه؟ هيَّ الحيوانات بتظهر بس في قصص الأطفال؟

فقال باسمًا:

ـ آه. ما دامت حيوانات بتتكلم تبقى قصص أطفال، إلا إذا كانت بقى قصص خيالية أو رمزية من بتوع زمان.

تدخلت مها في الحوار بعد أن أعطتني سيجارة ملفوفة كانت في يدها، وحكَت أنها ركبت مع سائق تاكسي اليوم كان ينظر إليها في المرآة، ويضع فوطة على حجره، ثم اكتشفت من حركة ذراعه أنه كان يستمني وهو ينظر إليها في المرآة. انتابها الذهول وأخذت توجه إليه لكمات طائشة من مكانها، حتى توقف بالسيارة فنزلت، وسط سبابه لها بأنها شرموطة. انفعل أمجد وعلق قائلًا إن هذه لم تعد مدينة، ولا حتى غابة. ثم التفت إليَّ وقال:

ـ مش دي الحاجات اللي تستحق يتكتب عنها برضو؟

فابتسمت مها وقالت بسخرية:

ـ يا أمجد دي عينة من حاجات بنشوفها كل يوم.

t.me/qurssan

وأنا أعطيت السيجارة لمها بعد أن أخذت بعض الأنفاس. كان الحشيش قويًّا، وشردت في الشكل المتكرر على قميص أمجد. كان شكلًا صغيرًا لونه أسود يتكرر على أرضية القميص الفاتحة، حتى أدركت فجأة أن هذا الشكل ما هو سوى بومة صغيرة. دققت النظر حتى أتأكد، وتابعت حركة البوم الصغير وهو يسير في خط، ثم يعكس اتجاه حركته في الخط التالي. في بعض الأحيان كان البوم الواقع على إحدى ثنيات القماش يبدو كأنه يحرك جناحيه، فابتسمت. حتى لاحظ أمجد تعلق عينيَّ بقميصه فسألني:

ـ فيه حاجة؟

بعد أن فرغت من تناول الإفطار في اليوم التالي ذهبت لزيارة والديَّ اللذين يسكنان بالقرب مني في الحي المتميز. بدت شوارع ضاحية ٦ أكتوبر منكمشة في جلدها من برد شهر فبراير. تلقتني أمي في حضنها فور أن فتحت الباب، وقالت لي:

ـ إزيك النهارده يا ضنايا؟

فقلت لها إنني بخير. ثم احتضنني أبي وأجلسني

t.me/qurssan

بجواره. لاحظت أن لوحة أسماء الله الحسنى المعلقة على الحائط قد فقدت اسمًا إضافيًّا للأسماء الثلاثة الناقصة، فسألتُ أبي عنه، فقال إن القطعة الخشبية التي تحمل الاسم سقطت كالعادة تحت الكنبة وإنه لا يستطيع الانحناء للبحث عنها. ثلاث قطع سقطت حتى الآن، وكلما تم إلصاقها في مكانها في اللوحة، سقطت مرة أخرى. فقمت من مكاني وانحنيت بحثًا عن الاسم المفقود. أمي قالت:

ـ ما تشغليش بالك، أخوكِ على وشك الوصول، وتامر ابنه الصغير هيلاقي الحتة اللي تايهة منا أكيد.

لكني في هذه الأثناء كنت قد عثرت بالفعل على القطعة الخشبية، مددت يدي وأمسكت بها، أخرجتها وتطلعت إليها، كانت اسم «القادر». عدت إلى مكاني، وفكرتُ أن ألصقها في اللوحة مكان سقوطها، لكن أمي قالت إن ليس لدينا الآن «أوهو»، وإن الأفضل الانتظار حتى يأتي أخي، فظللت في مكاني، وفي راحتي «القادر». ثم نهضت ووضعته بجانب «الإله» و«السميع» و«الماجد» فوق التلفزيون. سألني أبي عن أخبار البيت، فقلت له إني أعيش الآن وسط غابة من أكوام الخشب والرمل وباقي المخلفات، كل الأشياء مكركبة. فقال:

t.me/qurssan

ـ مش هتغيري رأيك يا بنتي؟ مش أحسن تيجي تعيشي معانا؟

قبل عشر سنوات جاء أحمد وأبوه وعمه إلى هذه الغرفة نفسها لطلب يدي. كان أبي يجلس في مكانه نفسه، وقد ارتدى قميصًا أبيض فضفاضًا يرتديه عادةً في المناسبات الرسمية. أنا وأحمد كنا صغارًا آنذاك، ونجد متعة كبيرة في مواجهة هذه الإجراءات بلامبالاة شديدة، حتى إنني وهو أمسكنا نفسينا بالكاد من السقوط في نوبة من الضحك ونحن جالسين مع الكبار لقراءة الفاتحة. بعد أن أنهينا المراسم تعللت بالذهاب إلى نادية، وهناك التقيت أحمد مرة أخرى وأكملنا ضحكنا. ليلتها سكرنا كثيرًا وتبادلنا قبلات كثيرة. كانت متعتنا لانهائية ونحن نتبادل السخط على المجتمع المحيط بنا وعاداته وتقاليده. لا أحد يفهمه مثلي عندما يتحدث بسخرية عن غلاظة أبيه في التعامل مع الناس، والتي حملها معه من الخليج حيث كان يعمل، لذلك فضَّل أحمد أن يأتي عمُّه معهما لطلب يدي. ولا أحد كان يفهمني مثله عندما أسخر من التباس هوية أخي، فهو يفخر بأصول أسرتنا الريفية المحافِظة، لكنه يحاول دومًا التشبه بالأسر المدينية في انفتاحها

t.me/qurssan

وتحررها، فيبدو دائمًا كأنه خرج لتوه من فيلم عربي. كنا صغارًا وداخلنا توق كبير للدخول في تجارب جديدة. حتى عندما ابتلعتنا مؤسسة الزواج داخلها ببطء، وتحولنا إلى زوج وزوجة تقليديين، الزوج يعمل مهندس إنشاءات يذهب كل يوم إلى العمل، والزوجة تبقى في البيت تقوم بالمهام العادية. حتى عندما تقطعت بي السبل في الكتابة وأرهقتني دوائرها، حتى عندما أصبحت أمارسها كما تمارس بعض النساء التطريز أو الرسم من منازلهن، حتى عندما حدث كل ذلك لم يكن لديَّ أي مانع من الاستمرار في حياتي كما هي ما دام أحمد بجانبي.

وصل أخي علي محملًا بأكياس بقالة كثيرة يشتريها عادةً لبيت العائلة عندما يأتي للزيارة كل أسبوع. دخلت زوجته على الفور المطبخ لمساعدة أمي، وبقيت أنا في غرفة الجلوس مع أبي وعلي وتامر، حتى أعلنت أمي أن الغداء جاهز، فتحلقنا حول الطاولة، أصرت زوجة علي على أن نجلس جميعًا، وأخذت تنوس بين المطبخ وتامر المتذمر على الأرض وطاولة الطعام، رغم رجائنا لها بأن تجلس أخيرًا معنا لكي تأكل. نظر إليَّ علي وقال:

ـ إنتِ بتصرفي منين؟

t.me/qurssan

فقلت له إني أتدبر أموري، لديَّ بعض الترجمات التي أعيش منها. فانفعل وقال:

ـ ترجمات! هوَّ فيه حد بيعيش من ترجمات؟! لازم نلاقي حل للمهزلة دي، ما ينفعش تفضلي عايشة لوحدك كده.

نظرت إليه وقلت له إننا قد تحدثنا من قبل في هذا الموضوع ولن نفتحه مرة أخرى. فزاد انفعاله وقال:

ـ لازم نفتحه مرة تانية وتالتة ورابعة لحد ما تعقلي، الأصول بتقول إنك تقفلي شقتك وترجعي لبيت أبوكِ لحد ما نلاقي صرفة للشقة.

ثم وجه حديثه إلى أبي قائلًا:

ـ ولَّا أنا غلطان يا حاج!

فتدخل أبي وقال:

ـ ده مش وقته يا علي يا ابني. بطلوا خناق دلوقتِ وكملوا غداكم.

توقفت في البيت عندما عدت أمام كومة الخشب التي تركها مصطفى في جانب الصالة، كومة جديدة بجانب الكومة التي نشأت عن أعمال الطلاء التي ارتجلتها.

t.me/qurssan

كانت الجذاذات المدببة تبرز من ألواح الخشب كأنها أسلاك شائكة. ثم تذكرت أني لم أنظف مكان سقوط شظايا الجدار مكان الشباك في الصالة، فغيرت ملابسي، وتناولت المكنسة والجاروف. وأنا أنظف تناهى إليَّ صوت جرس التلفون، فذهبت لكي أرد. جاءني صوت أحمد مختلطًا بخروشة تصاحبه منذ انتقاله إلى شقة وسط البلد. سألني عن الأحوال، فقلت له إني بخير. ثم سأل عن الشبابيك، فقلت له إن مصطفى غيَّر شباك الصالة الكبير، وبقي شباكا غرفة النوم. منذ أن رحل أحمد ونبرة صوته تغيرت، أصبحت نبرة يختلط فيها تأنيب الضمير بالعطف. كأنها تريد أن تقول لي دائمًا: «سامحيني، لم يكن هناك شيء آخر بيدي». قال أحمد:

ـ وشباك أوضة المكتب؟

فقلت له إن غرفة المكتب ستظل مغلقة حتى أقرر ماذا أفعل بها. فسألني أحمد:

ـ مش هتستخدميها؟

فأجبته أنها كانت غرفته، وأني أشعر بغربة كبيرة عند الجلوس فيها الآن. في تلك الليلة ذهبت إلى النوم، واستيقظت في قلب الليل على حلم رأيت فيه أحمد جالسًا في غرفة المكتب وسط ناس لا أعرفهم، يجرعون

t.me/qurssan

الشمبانيا في نشوة ويحرثون بشوكات في أيديهم أرضية الغرفة. فتحتُ عينيَّ فاصطدمتا بالعتمة، وأخذت أصيخ السمع. تناهى إليَّ صوت جلبة قادمة من ناحية المكتب. تشبه دقات على الحيطان تارة، ووقع أقدام على الأرض تارة أخرى، كأن وحشًا محبوسًا داخل الغرفة يصارع بحثًا عن مخرج. أخذت الجلبة تقترب من غرفة نومي شيئًا فشيئًا، من دون أن أستطيع التوصل إلى مصدرها المحتمل. حبست أنفاسي، وبقيت في مكاني جامدة من الرعب في انتظار أن تصل إلى باب غرفة نومي. لكنها توقفت فجأة ثم أخذت تبتعد شيئًا فشيئًا في اتجاه المطبخ.

مر أسبوعان ولم يأتِ مصطفى لتركيب باقي الشبابيك. كذلك لم يتصل أحمد لكي يسأل عن أحوالي. حلمتُ ذات يوم بقضيبه، كان ممتلئًا ودافئًا بين يدي، مع أول لمسة من لساني ارتجف رجفة خفيفة. وأثناء جلوسي لمراجعة مسودات الترجمة التي بين يديَّ كنت أسمع أصواتًا مبهمة. اليوم وأنا جالسة قرب الفجر، وزرقة السماء في الخارج تتفتح شيئًا فشيئًا، سمعت صوتًا قادمًا من وراء كومة الخشب. كان القرد. تبادلنا النظرات طويلًا، ثم

t.me/qurssan

اقترب مني. كان يعكز في حركته على قدميه ويده اليسرى. وعندما وقف أمامي رفع يده اليمنى فرأيتها مبتورة الكف. كان مكان البتر نظيفًا من دون ترك نسائر لحمية أو جلدية معلقة، وكان بإمكاني من موقعي أن أرى مقطعَي العصب والعظم ناصعَي البياض. فقدت سيطرتي على نفسي، واتجهت إلى الهاتف، طلبت رقم أحمد، وأنا لا أعرف ما الذي أفعله، استمر الرنين طويلًا، حتى جاء صوته ناعسًا. صرخت فيه وأنا منهارة:

ـ خُد حبك بعيد عني يا أحمد. أنا لمِّيتهولك كله وحطيتهولك في أوضة المكتب. احرقه أو ارميه في البحر، بس خُده بعيد عني. أنا مش قادرة أستحمل، ومش عارفة أخلص منه. أرجوك خُد حبك بعيد عني، خُده بعيد عني، أنا مش قادرة أستحمل أكتر من كده، أرجوك!

ثم أخذتُ في البكاء.

بعد أن أخبرني أحمد بأمر هدى في ذلك اليوم الحار من شهر أغسطس استمرت حياتنا المشتركة لعدة أيام. توقف هو عن الذهاب إلى العمل، وبقينا معًا طيلة اليوم. كنا نتحدث، ثم نتشاجر، ثم نمارس الجنس كاثنين من

t.me/qurssan

العميان. نخرج من البيت في تمشيات طويلة، أو نذهب إلى بعض السهرات. ثم نعود، نتحدث، ونتشاجر، ونمارس الجنس. يطرقني الأورجازم المرة تلو المرة. المرة الأولى التي عرفت فيها الأورجازم كانت بعد زواجنا بسنتين أو ثلاث. كان أحمد فوقي يتحرك بين فخذيَّ بحنان، وشيء ما في موازين الكون قد اعتدل. شعرت بنقطة تسري ببطء من رأسي عبر سلسلة ظهري، حتى تصل بين ساقي، وأخذت تكبر شيئًا فشيئًا حتى أصبحت كرة كبيرة، لم أعرف إلى أي مدى سأتحمل ضغطها الباهظ، فنظرت إلى أحمد، لكنه كان قد أغمض عينيه، ثم انفجرت الكرة واجتاحت جسدي كل التيارات المكتومة فيها. انفجرت الألوان أمام عينيَّ المغمضتين، وعندما فتحتهما طفرت الدموع منهما. انتبه أحمد وضمني إليه وهو يقول:

ـ يا حياتي. هوَّ ده اللي بيسموه في الكتب «هزة الجماع».

بعدها وكلما يمتد بنا المقام وتعتدل موازين الكون بشكل يكفي لكي أقطف أورجازمي، كنت أشعر بأنني أذوب في أحمد، وأحمد يذوب فيَّ، وأننا لسنا اثنين، ولكن وحدة واحدة، عنصر واحد نشأ عن التقاء شقيه، ولا يمكن فصمه بعدها. سنكبر لنصبح بعمر الكون ولن يفرقنا شيء. وفي أحد أيام الهذيان هذه قلت لأحمد في الصباح:

t.me/qurssan

ـ قررت عايز تعمل إيه؟

فقال:

ـ مش عارف، أنا تايه.

فقلت له بحزم:

ـ إذن سيب البيت دلوقتِ وما ترجعش غير لما تعرف.

صمت قليلًا، ثم قال:

ـ اللي تشوفيه.

ساعدتُه في تجهيز حقيبة صغيرة فيها غياران وبعض الملابس، ثم أخذها وترك البيت. استأجر شقة صغيرة في وسط البلد، ونقل ملكية البيت إليَّ. ولم يعد إليه مرة أخرى قَطُّ.

جاء مصطفى أخيرًا ليكمل عمله. قال إن الموتوسيكل الخاص به قد تعطل، واضطر إلى أن يغير له المحرك. ثم سألني إذا كان يستطيع دخول غرفة النوم لتغيير الشباكين. كان نهارًا رائقًا. أعددت قهوة وجلست أعمل. بعد عدة ساعات نادى مصطفى من غرفة النوم، فذهبت إليه. كانت الغرفة قد تحولت إلى ساحة حرب، وانتشرت الشظايا في

t.me/qurssan

كل مكان، رغم حرصي وفرش الأغطية أينما استطعت. رأيت الشباكين الجديدين في مكانهما. أجريت درفتيهما في مجراهما يمينًا ويسارًا. قال مصطفى إنه قد انتهى من التركيب، وإنه سيضع الآن المعجون ليملأ الفراغ بين الإطار المعدني والحائط. وخرج ليجهز المعجون وبقيت وحدي أتأمل الشباكين الزجاجيين. بعد أن فرغ مصطفى من عمله، وضع بقايا الشباكين وحلقيهما الخشبيين فوق الكومة في الصالة، وقال إنه سيأتي في اليوم التالي بعربة صغيرة ليأخذ كل المخلفات. بعد أن غادر ذهبت إلى مقعدي وجلست، وأغلقت عينيَّ. مضى بعض الوقت، وعندما فتحتهما مرة أخرى رأيت الثعلب يخرج من غرفة النوم ويتجه ناحيتي. اقترب مني ثم جلس أمامي على قدميه الخلفيتين. أخذت أتطلع إليه وهو يتطلع إليَّ، ثم قال:

ـ مساء الخير على الحلوين.

قال الجملة بجدية فانفجرتُ في الضحك بينما بقي هو يتطلع إليَّ صامتًا، ثم غادر عائدًا إلى غرفة النوم.

مقعدي لم يتغير. المقعد نفسه الذي قضيت سنوات حياتنا المشتركة فوقه، ولا أستطيع الجلوس فوق مقعد آخر.

t.me/qurssan

أجلس عليه وساقاي مثنيتان تحتي، أو أضم ركبتيَّ إلى صدري وأسند إليهما رأسي. تحيط بي أوراقي وكراساتي. أضعها أحيانًا بنظام، وأحيانًا كيفما اتفق. أحمد كان يجلس على الصوفا ممددًا يشاهد التلفزيون، أو يجلس في غرفة مكتبه أمام شاشة الكمبيوتر. لا يضايقني صوت التلفزيون، وإذا ضايقني أطلب منه خفض الصوت، فيفعل. أكره أن أنعزل في زاوية لكي أكتب، وأفضِّل دائمًا أن أكتب وسط ضجيج حياتي. بوعي مخترَق دائمًا. أكتب وأنا أفكر في شيء آخر. لم يعد أحمد لأخذ أي شيء من البيت بعد أن غادره. أرسلت إليه في مرة كرتونة بها بعض الأشياء التي طلبها مع أحد الأصدقاء. وضعت باقي أشيائه في غرفة المكتب. حتى ملابسه وضعتها في كرتونة وخزنتها في غرفة المكتب. كلما سألته عما إذا كان سيأخذ أشياءه كان يقول إنه لا يعرف ماذا يفعل بها. رن جرس التلفون، فأزحت الأوراق التي حولي وبقيت ساكنة. استمر الجرس في الرنين وأنا مثبتة في مكاني. فكرت أن أبقى كما أنا حتى ينتهي الرنين لكنه لم ينتهِ. فكرت لوهلة أن أسحب سلك التلفون من الحائط، لكني قمت في النهاية ورفعت السماعة. سمعت صوت نادية وهي تقول:

t.me/qurssan

ـ كنتِ فين؟ كنت هاقفل السكة. أنا وسلمى هنعدي عليكِ الليلة علشان نبات معاكِ، إيه رأيك؟

فقلت:

ـ جميل، أنا في انتظاركم.

وضعت السماعة، وعدت إلى أوراقي مرة أخرى.

يوم غادر أحمد البيت للمرة الأخيرة ذهبت في المساء إلى نادية. عندما فتحت الباب قلت لها باقتضاب إن أحمد تركني لأنه يحب هدى. تجمدت نادية في مكانها ولم تقل شيئًا. ثم أدخلتني وهي تتمتم بكلمات لم أفهمها. ثم سألتني ماذا أريد أن أفعل الآن، فقلت لها إني أريد أن أنام. فقادتني فورًا إلى الصوفا. لا أدري كم من الوقت جلست في حضنها، بينما أخذت هي تكرر غير مصدقة:

ـ هدى؟! هدى؟!

حتى وصل زوجها ومعه سلمى. بدا الاضطراب على زوج نادية عندما رآنا هكذا ولم يعرف ماذا يقول، فنهضت نادية وقادته إلى المطبخ، وانزلقت سلمى إلى حضني وهي تسألني لماذا أبكي. فكنت أقول لها:

t.me/qurssan

ـ مفيش يا حبيبتي.

وكانت هي تمسد على شعري وتمسح على وجنتيَّ حتى رحتُ في النوم.

ما إن دخلت نادية حاملةً سلمى إلى البيت حتى قالت مبتسمة:

ـ إحنا مزاجنا شكله حلو النهارده ولَّا إيه؟

فابتسمت أنا أيضًا. بدأت سلمى على الفور فحص المستجدات في البيت، فدارت حول كومات المخلفات، وحاولت سحب أشياء لفتت انتباهها فيها لكني منعتها على الفور، وحملتها وأنا أدفن رأسي في صدرها وهي تقرقع من الضحك.

سألتها:

ـ بقيتِ إيه النهارده يا سمسم؟

فقالت إنها أصبحت تفاحة، فأخذت أتظاهر أني أقطف تفاحة دانية من شجرة غير مرئية وأقضمها، فقالت سلمى بسرعة:

ـ لا، أنا دلوقتِ فراشة.

t.me/qurssan

فأمسكت بفراشة وهمية في قبضتيَّ الخاليتين، فصرخت سلمى ضاحكة:

ـ لا لا، أنا دلوقتِ... سلحفاة.

وقبل أن أقرر كيف سأمسك بسلحفاة رن التلفون. استمرت سلمى في الضحك، ووقفت أنا في مكاني لوهلة. كنت أعرف أني عندما سأذهب لألتقط سماعة التلفون سيأتيني صوت أحمد عبر الأسلاك. كنت أعرف أني إذا التقطت السماعة فسأسمع نبرته الجديدة التي أصبحت لا تخصني، نبرته التي تبحث عن أطلال تبكي فوقها. تردد رنين الجرس في الصالة، حتى ذهبت إلى سلك التلفون ونزعته من الحائط، فاختفى الجرس فورًا. نظرت إليَّ نادية مندهشة. أما سلمى فلم تعلق، ولكنها استأنفت اللعبة من حيث توقفنا، فقالت:

ـ أنا دلوقتِ سلحفاة.

فقلت لها على الفور:

ـ وأنا تعلب.

اندهشت سلمى قليلًا من التحول في مجرى اللعبة، ثم قالت:

ـ أنا دلوقتِ قطة.

t.me/qurssan

وأنا قلت:

ـ أنا دلوقتِ قرد، لا أنا بومة. لا لا أنا نمر.

وكشرت عن أنيابي ومخالبي، فأخذت سلمى تقرقع من الضحك.

t.me/qurssan

هناك أشياء تنتهي، وتذوي، وتَعطَب. تُعطِّل حياتنا ولا ننجح في إصلاحها مهما حاولنا. ربما يفتح لنا قبول هذا الفساد والانهيار طريقًا لرؤية الإمكانيات الغائبة، التي قد نتكشَّف واحدة إثر أخرى وراء هذا العَطَب أو «ما لا يمكن إصلاحه».

هذه القصص الملهِمة لهيثم الورداني، تدور حول تلك الصدوع التي نحاول ترميمها، ونتشبث بها خوفًا مما لا نعرفه، وحول إنسان ذلك العالم الآفل، وشعوره بمركزيته، وعنفه حيال ذلك المجهول، وحيال كل ما يفلت من منطق تلك المركزية.

هيثم الورداني أحد أبرز كُتَّاب جيل التسعينيات. نشر ثلاث مجموعات قصصية، هي: «خيوط على دوائر» (مع آخرين)، و«جماعة الأدب الناقص» (جائزة ساويرس في القصة القصيرة ٢٠٠٣)، و«حلم يقظة» (جائزة معرض القاهرة للكتاب لأفضل مجموعة قصصية ٢٠١٢). إضافةً إلى كتاب «كيف تختفي». ونشرت له دار الكرمة مؤخرًا «كتاب النوم»، الذي تصدُر ترجمته الإنجليزية قريبًا.

t.me/qurssan

الكرمة